سورة التوبة

أعوذ بالله السميع العليم
من الشيطان الرجيم

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾

هذه السورة لا تبدأ بالبسملة، لأن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١] أمان، وبراءة: نزلت لرفع هذا الأمان.. كما يقول سيدنا علي رضي الله عنه، أو لأن سيدنا عثمان رضي الله عنه هو الذي ترك «البسملة» بينهما، عندما كان يجمع القرآن؛ لأنه وجد أن قصة هذه السورة «التوبة» تشبه قصة «الأنفال»، حيث إن الأنفال فيها ذكر العهود، وهذه فيها قطع العهود.

إضافة إلىٰ أنَّ النبي ﷺ كان إذا نزلت عليه سورة أو آية قال: «**اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا، وكذا**»، وقد توفي عليه الصلاة والسلام، ولم يبيِّن لنا ـ كما يقول عثمان ـ أين نضعها،؟ وقد ترك الصحابة كتابتها وتلاوتها في أول هذه السورة، دون أن ينكر أحدهم هذا أو يعترض عليه.

هذه السورة الكريمة: من أواخر ما نزل من القرآن الكريم.

وفي هذه **الآية الأولىٰ منها:** يعلن الله تعالىٰ البراءة ﴿مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وقطع العهود المبرمة معهم إلىٰ أجل غير محدود، أو إلىٰ مدة هي أقل من أربعة أشهر، بين المسلمين وبينهم.

وهؤلاء وهؤلاء يعطيهم الله مهلة، ثم بعدها: يُقْتَلون أو يُسْلِمون، هذه المدة هي المذكورة في قوله تعالى:

﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾

يعني: سيروا أيها المشركون ـ بموجب هذه المهلة ـ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ لكم فيها مطلق الأمان، وبعدها: تنتهي المعاهدات التي بينكم وبين المسلمين، بسبب هذه البراءة، التي فرضها الله تعالىٰ، ولا أمان لكم بعد هذه المدة، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ﴾ يا مشركون، بالرغم من هذه المهلة ﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي: غير ناجين من عذابه، فلا تغتروا بهذا العقد المؤقت لكم بالأمان.

واعلموا أيضًا: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ الذين يُصِرُّون علىٰ كفرهم وعنادهم، وحربهم لله ولرسوله وللمؤمنين، وذلك الخزي لهم يكون بالقتل في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة.

وهذه البراءة من عهود المشركين ومهلتها تتم عبر إعلان عام، وفي مناسبة هامة، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾

يعني: ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ وإعلان عام ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ جميعًا يتم ويعلن ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ وهو يوم عرفة.

وهذا الإعلان العام يتكون من عدة مواد:

المادة الأولىٰ: هي: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وعهودهم ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ بريء منهم ـ أيضًا ـ ومن عهودهم.

المادة الثانية: هي: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ أيها المشركون من الكفر، وآمنتم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم فيه.

المادة الثالثة: هي: ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الإيمان، وبقيتم علىٰ الكفر والعناد ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ﴾ مع هذا الكفر والعناد﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي:

غير ناجين من عذابه، فلا تغتروا بما أنتم فيه من أمور الدنيا.

المادة الرابعة: هي ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بصفة عامة، وأصرُّوا علىٰ كفرهم، ولم يتوبوا حتىٰ موتهم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقد بعث النبي ﷺ عليًّا رضي الله عنه، حين نزلت هذه الآيات، من أول السورة إلىٰ نهاية قوله تعالىٰ:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وكلفه ﷺ أن يؤذِّن بها، ويُعْلِم الناس جميعًا في موسم الحج من العام التاسع الهجري، وأضاف النبي ﷺ إلىٰ مواد هذا الإعلان الإلٰهي مادتين هما:

المادة الخامسة: هي: أن لا يحج بعد هذا العام مشرك.

المادة السادسة: هي: أن لا يطوف بالبيت أحد عاريًا، حيث كانوا يطوفون عرايًا من ملابسهم، ويقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها.

هذا ويستثنىٰ من هذه البراءة العامة من المشركين ما تفيده الآية التالية:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

يعني: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قبل ذلك بعهود أمان بينكم وبينهم، ﴿ثُمَّ﴾ وفوا بعهودهم و ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من شروط العهود، أو يخلوا بها، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿لَمْ يُظَٰهِرُواْ﴾ أي: يعاونوا ويساعدوا في حرب ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾، هؤلاء لا تقطعوا عهودهم، بل ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ الذي عاهدتموهم عليه ﴿إِلَىٰ﴾ انتهاء ﴿مُدَّتِهِمْ﴾ التي تنص عليها شروط العقد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ﴾ من ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الوفاء بالعهود.

أما الذين قطعت معهم العهود، من المشركين، وأعطوا مهلة وهي أربعة أشهر، فيقول الله تعالىٰ بالنسبة لهم:

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

أي: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾ انتهىٰ زمن ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ التي كانت هي مدة مهلتهم، قبل قطع العهود معهم، وكذلك: إذا انتهت مدة عهود المشركين، الذين قال الله عنهم ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ﴾ [التوبة: ٤] لأنهم لم ينقضوا من عهودهم شيئًا، ولم يساعدوا أحدًا علىٰ حرب المسلمين، إذا انتهت مدة هؤلاء وهؤلاء: فَتُقْطَع العهود فوراً معهم، ولا يكون أمامهم إلَّا أحد أمرين: إما الدخول في الإسلام، أو القتال.

فإن أسلموا بعد انتهاء المهلة، أو المدة: فهو خيرٌ لهم.

وإن تولوا وأعرضوا عن الإيمان، فالله عز وجل يقول: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أعرضوا عن الإيمان ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في حِلٍّ أو في حرم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أسرىٰ ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ قيِّدوهم عن الحركة، واحبسوهم، وامنعوهم من التصرف في البلاد، ﴿وَ﴾ لتحقيق ذلك ﴿ٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ﴾ أي: تربصوا لهم في كل مكان تستطيعون رصدهم منه، والإمساك بهم فيه.

﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ وأسلموا، بعد أسرهم، والإمساك بهم، وحَسُن إسلامهم، بأن ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فقد صاروا إخوانكم، وعلىٰ هذا ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ وأطلقوا سراحهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما حدث منهم قبلًا ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، حيث هداهم للإسلام.

هذا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾

يعني: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين تبرأ الله منهم، وقطعت العهود معهم، أو من غيرهم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي: طلب الأمان من القتل، وأن تحفظه في جوارك مما يخاف، فلا تقتله، بل ﴿فَأَجِرْهُ﴾ وأعطه الأمان، واجعله في جوارك؛ ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ﴾ منك ﴿كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن، الذي كانوا يمتنعون عن سماعه، ويتناهون عنه، كما في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، فقد يهده الله ويؤمن

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ﴾ حتىٰ وإن لم يؤمن ﴿مَأْمَنَهُۥ﴾ أي: مكان أمنه، في داره، أو دار قومه؛ لأنه لا إقامة له بيننا، ولينظر في أمر نفسه بعد هذا التصرُّف من المسلمين معه، وبعد سماعه القرآن؛ فقد يهده الله ويؤمن.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم مناسب لدعوتهم، والسبب ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ دين الله، وما فيه صالحهم.

فإن قال قائل: لَمَ تُقْطع هذه العهود مع المشركين؟ أجيب بقوله تعالى:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾

أي: لم لا تقطع هذه العهود معهم، ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ وكيف يكون لهم عهد وأمان، وهم مشركون بالله، كافرون به وبرسوله، غادرون في أمانهم، ناقضون لعهودهم؟

ومع ذلك: فقد استثنىٰ الله من هؤلاء الناكثين للوعود، الناقضين للعهود ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يوم الحديبية في العام السادس، وهم قريش.

ثم وضع شرطًا لاستمرار هذا العهد، حيث قال: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ﴾ ووفوا بالعهد، ولم ينقضوه ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ علىٰ الوفاء به؛ فماذا تم؟ استقام النبي ﷺ ووفَّىٰ بشروط العقد، أما هم فنقضوا العهد.

وهذه هي: طبيعة الشرك وأهله التي تدفع إلىٰ إلغاء العهود معهم، ونبذ عقودهم؛ لغدرهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يوفون، ولا يغدرون.

ثم: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨﴾

يعني: ﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين أمان منكم، وهم ـ في الوقت ذاته ـ ﴿إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ يظفروا بكم، ويجدون فرصة لقتلكم أو إيذائكم ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ﴾ لا يراعون لكم ويحترمون﴿إِلًّا﴾ قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ ولا عهدًا، بل يقتلونكم أو يؤذونكم.

هم: يبغضونكم، ويحقدون عليكم، ويتربّصون بكم الدوائر.

ولكن مراعاة لصالحهم ﴿يُرْضُونَكُم﴾ بكلام حسن، يقولونه ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ فقط ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، بل ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ الخير لكم، والوفاء بالعهود معكم، هؤلاء ﴿أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ غالبيتهم ناقضون للعهود، لا مروءة عندهم، ولا وفاء لديهم.

هـــؤلاء: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾

أي: هؤلاء الذين تقطع معهم العهود ﴿اشْتَرَوْا﴾ استبدلوا ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وهي القرآن ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من متاع الدنيا الزائل، وشهواتها الخبيثة الفانية.

ولمّا فعلوا ذلك واتبعوا الهوى، وخضعوا للشهوات ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أنفسهم وصرفوها عن الهداية، وصدُّوا غيرهم أيضًا.

﴿إِنَّهُمْ﴾ بفعلهم هذا ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

إنهم: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ .

يعني: هؤلاء ﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾ لا يراعون، ولا يحترمون ﴿فِي مُؤْمِنٍ﴾ بصفة عامة ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ قرابة، ولا عهداً، بل يقطعون الرحم، ويخونون العهود.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ المجاوزون كل الحدود.

فكيف يكون إذن معهم عهود؟ بل كيف لا تقطع معهم العهود؟

ومـع ذلـك: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

أي: ﴿فَإِن﴾ تاب هؤلاء المعتدون عمّا هم فيه، وآمنوا بالله ورسوله ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ فقد صاروا منكم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم.

﴿وَ﴾ هكذا ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ ونبيّن الأحكام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيعملون.

ثم يعود الحديث مرة أخرىٰ عن المشركين الذين أُعطوا مهلة أربعة أشهر، والمشركين الذين أُعطوا مهلة إلىٰ نهاية تمام مدة عهودهم، ولكن من زاوية أخرىٰ غير ما سبق، حيث قال تعالىٰ:

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾

يعني: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ نكث هؤلاء في أيمانهم التي حلفوها عند عهودهم التي قطعوها علىٰ أنفسهم، وذلك قبل انتهاء مدة هذه العهود ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أي: في الإسلام ومبادئه، وعابوه، أو انتقصوا منه: فقد غدروا، وعلى ذلك: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ فيهم، أي: رؤساءهم، وزعماءهم؛ حيث ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ﴾ حقيقية، أو صادقة ﴿لَهُمۡ﴾ بل هي مخادعة منهم، وهذا القتال ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ عن الفساد؛ إذْ لا طريق يردعهم عن فسادهم إلَّا القتال.

ثم يعاتب ربنا المسلمين علىٰ عدم قتالهم، فيقول موبخًا:

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾

أي: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾ لمَ لا تقاتلون ﴿قَوۡمٗا﴾ اجتمعت فيهم هذه السيئات:

أولًا: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ونقضوا عهودهم.

ثانيًا: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكة، أو قتله.

ثالثًا: ﴿وَهُم﴾ الذين ﴿بَدَءُوكُمۡ﴾ بالقتال ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والبادئ أظلم.

إذن ما الذي يمنعكم من قتالهم؟ ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ وتخافون منهم؟

إذا كان الأمر كذلك: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ وتخافوه، وتقاتلون وتقتلون من أجله، ومن أجل دينه ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ حقًّا.

وبعد هذا العتاب والتوبيخ يكون التحريض الصريح علىٰ قتالهم، حيث يقول المولىٰ عز وجل:

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ

قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

يعني: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾ أيها المسلمون، ففي ذلك خمس فوائد:

أولًا: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ بعد أن كانوا يعذبونكم.

ثانيًا: ﴿يُخۡزِهِمۡ﴾ بالهزيمة، والقهر، وذل الأسر.

ثالثًا: ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ حيث إن النصر من عنده وحده.

رابعًا: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ طالما عانت وتعبت ومرضت من أذيتهم.

خامسًا: ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ أي: قلوب المؤمنين، بسبب ما كانوا يرونه من عُلُوِّ الكفر وطغيان أهله.

ومع كل ذلك ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ من هؤلاء الكافرين، إذا آمنوا، وفي هذا إخبار بأن بعضهم سيؤمن قبل موته.. وقد كان، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما سيكون من هؤلاء ﴿حَكِيمٌ﴾ في قبول توبة مَن يؤمن.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالىٰ للمسلمين:

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

أي: هل ﴿حَسِبۡتُمۡ﴾ يا مسلمون ﴿أَن تُتۡرَكُواْ﴾ دون اختبار وابتلاء يميِّز الله به الصادق في إيمانه من غيره؟ وكان هذا الاختبار بفرضية الجهاد؛ ليكشف ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ في سبيل الله ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ﴾ في الوقت ذاته ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لأنفسهم ﴿وَلِيجَةٗ﴾ يعني: بطانة وأصدقاء ومستشارين، وأهل مودة من هؤلاء الكفار، يعني: يكشف هؤلاء المخلصين، ويميِّزهم عن غيرهم.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يعرف المخلص في جهاده من غيره، ويجازي كل فريق بما يستحق.

ثم يسوق لنا ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ حُكمًا جديدًا بالنسبة للمشركين، حيث يقول:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

يعني: ﴿مَا كَانَ﴾ ما ينبغي وما يصح ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أن يجمعوا بين أمرين متناقضين: ﴿أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، عمارة المسجد الحرام، والإشراف علىٰ شؤونه، ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ والكفر الذي يشهدون به علىٰ أنفسهم.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ مهما فعلوا، فقد ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ ولا يؤجرون عليها، ﴿وَفِي النَّارِ﴾ مصيرهم، و﴿هُمْ خَالِدُونَ﴾ مقيمون أبدًا.

وفي هذا: نزع لولايتهم عن المسجد الحرام، ومنع لهم من شرف القيام بخدماته، وخدمات زوَّاره وعُمَّاره.

ثم بيَّن المولىٰ عز وجل المستحقين لشرف عمارته، فقال:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

أي: الذي يستحق أن يَعْمُرَ ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ عمارة معنوية بالذكر، والصلاة والطواف.. إلىٰ غير ذلك، وعمارة مادية من تنظيف، وتنوير، وصيانة.. إلىٰ غير ذلك.. فهو كل ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ أي: اجتمع له الإيمان، والعمل بالأركان، وكذلك ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: لا يخاف إلَّا من الله، ولا يُرضي أحدًا سواه.

يقول ربنا: ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ﴾ الذين ذُكروا ﴿أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ وهم مهتدون بإذن الله؛ لأنهم يقولون: «كل كلمة عسىٰ في القرآن إذا كانت من الله: فما بعدها محقق».

وبالتالي: فغيرهم، وبالذات من المشركين، غير مهتدين.

وحتىٰ يبطل الله ادعاءات بعض المشركين أنهم علىٰ خير ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] ببعض صور الخير التي يفعلونها!!

وحتىٰ لا يُخدع المسلمون ببعض الأعمال الخيرية التي يفعلها المشركون، فيظنون أنهم بذلك علىٰ خير!!

يبيِّن الله عز وجل أنه لا يستوي أهل الإيمان بالله تعالىٰ ورسوله، أي: أهل الجهاد، بأهل سقاية الحجاج، وسكن المسجد الحرام، مع بقائهم علىٰ الشرك، فيقول سبحانه:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩)﴾

يعني: لا يستوي عند الله تعالىٰ مَن يفعل هذا مع مَن يفعل ذاك في القبول.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المشركين، ولا يقبل أعمالهم مهما كانت.

والآية: تلفت نظرنا إلىٰ موضوع هام يقع فيه كثير من المسلمين، وهو: قضية تقديم المفضول علىٰ الفاضل، حيث إنه أحيانًا ما تُعطَّل فرائض لصالح نوافل، وأحيانًا ما يكون التمسُّك بالأقل قيمة، والتفريط في الأعلى أهمية، وأحياناً ما يكون الاستنكار لمَا هو أكبر جرمًا عند الله: أقل من الاستنكار لمَا هو أخف جرمًا عند الله.

وهذا موضوع هام: ينبغي الانتباه إليه، وعدم الوقوع فيه.

ثم يوضِّح الله ـ إتمامًا لعدم المساواة ـ أن المؤمنين المجاهدين هم الفائزون، فيقول:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٢٠)﴾

أي: إن الذين اتصفوا بهذه الصفات الثلاث: ﴿ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، هؤلاء:

أولًا: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ وأعلىٰ منزلة، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الذين يقومون بسقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام، مع بقائهم علىٰ الشرك.

وثانيا: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالخير كله. ومن هذا الخير أن الله تعالىٰ:

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١)﴾

يعني: لمَّا اتصفوا بثلاث صفات وهي: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالنفس والمال، بشَّرهم ببشارات ثلاث وهي: الرحمة، والرضوان، والجنات التي فيها النعيم المقيم.

ومن هذا النعيم المقيم أنهم:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾

وأيُّ أجر أعظم من هذا، إنه لا أعظم من هذا أبدًا.

وأما مَن ترك الهجرة في سبيل الله من أجل أهله، وخوفًا علىٰ تجارته: فقد أنزل الله تعالىٰ فيه قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾

لمَّا أمر الله تعالىٰ بالتبرُّؤ، وقطع العلاقات مع المشركين، قال بعض الناس: كيف يقاطع الرجل ابنه وأباه وأخاه؟

فذكر الله تعالىٰ: أن مقاطعة الرجل أهله وأقاربه المشركين من أجل الدين واجبة.

وعلى هذا: فالمؤمن لا يوالي، ولا يطيع الكافر، حتىٰ وإن كان ابنه أو أباه أو أخاه؛ لأنهم ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ واختاروا ﴿ٱلۡكُفۡرَ﴾ بالله تعالىٰ ورسوله، وفضَّلوا ذلك ﴿عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ﴾ أي: مَن يتخذهم أحبابًا وأولياء، أو يختار الإقامة معهم في دار الكفر، ويفضل ذلك علىٰ الهجرة والجهاد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم وللمؤمنين ولدين الله؛ بمخالفتهم أمر الله، واختيار الكفار علىٰ المؤمنين.

لمَّا نزلت هذه الآية قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: إذا نحن هاجرنا من مكة إلىٰ المدينة ضاعت أموالنا، وذهبت تجارتنا، وخربت ديارنا، وقطعت أرحامنا، فأنزل الله تعالىٰ:

﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾

أي: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين قالوا: «إذا نحن هاجرنا حدث كذا» ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾ أي

اكتسبتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بسبب مقاطعة الكفار لها ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ وتفضلونها، أي: إن كانت هذه الأشياء الثمانية حبُّها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ فقعدتم بسبب هذا الحب عن الهجرة والجهاد: ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ أي انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بعقابه، وفي هذا تهديد لمن آثر وفضَّل لَذَّات الدنيا علىٰ الآخرة.

كما أن الله تعالىٰ يقول تهديدًا: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

مما يدل علىٰ أن مَن لم يكن الله ورسوله أحب إليه مما ذكر، ومن لم يكن الجهاد في سبيل الله أحب إليه مما ذكر، فهو فاسق ولا يستحق الهداية.

وبمناسبة الجهاد في سبيل الله، وقتال المشركين: ينبِّه ربنا عز وجل علىٰ أن النصر من عنده، قَلَّ عدد المسلمين أو كَثُر!!

وبذلك: تبرز قضية هامة جدًّا، وهي: ضرورة التَّوْكُّل علىٰ الله تعالىٰ، والاعتماد عليه وحده، يقول الله سبحانه:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يعني: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ بتأييده لكم علىٰ أعدائكم ﴿فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ من مواطن ومواقع القتال، وكنتم حينها قليلو العدد كيوم بدر، ويوم الأحزاب، وخلافه.

وأما ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وهي موقعة كانت في وادٍ بين مكة والطائف، وكان عدد المسلمين اثنا عشر ألفًا، وأعداؤهم أربعة آلاف من المشركين.

يقول تعالىٰ: اذكروا يا مسلمون ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ يومها وغرتكم ﴿كَثْرَتُكُمْ﴾ وقال قائلكم: «لن نُغْلَب اليوم من قلة» وتخلَّىٰ عنكم الله - امتحانًا لكم - بنصره، ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾ كثرتكم وتردُّ عنكم من الهزيمة ﴿شَيْـًٔا﴾ ووصل الحال إلىٰ أن ﴿ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ يعني: علىٰ سعتها لم تجدوا مكانًا تهربون إليه من عدوكم، وتطمئنون فيه علىٰ أنفسكم ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾ وانصرفتم ﴿مُّدْبِرِينَ﴾ منهزمين، بالرغم من كثرة عددكم، وقلة عدوكم.

وما ذاك: إلَّا لعدم التوكل علىٰ الله، والاعتماد عليه، والاغترار بالكثرة والجنود والعتاد، والغفلة عن أن الله عز وجل هو الناصر وحده.

وكان هذا درسًا للمؤمنين عظيمًا:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾

يعني: ﴿ثُمَّ﴾ أي بعد هذا الدرس لم يتخلَّ الله عن أوليائه؛ حيث ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ طمأنينته ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأمَّنهم بها من خوفهم، ورحمهم بها من فزعهم، كما أنه عز وجل ﴿أَنزَلَ جُنُودًا﴾ تحارب الكفار معكم وهي: الملائكة، التي ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ بعيونكم، ونَصَركم علىٰ أعدائكم بعد هزيمتكم، وبالرغم من قلة عددكم، وكذلك ﴿عَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأيديكم؛ حيث قتلتم منهم ما قتلتم، وأسرتم منهم ما أسرتم ﴿وَذَٰلِكَ﴾ القتل والأسر ﴿جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في الدنيا.

وبعد هذا: يفتح الله بابه أمام المشركين الذين عذَّبهم بأيدي جنوده، إذ يقول الغفور الرحيم:

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

أي: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ يفتح الله باب رحمته وتوبته ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ من هؤلاء الكفار؛ حيث يلهمهم الدخول في الإسلام، فيدخلون، فيتوب عليهم، ويغفر لهم ما سبق منهم، ويرحمهم فيما هم قادمون عليه.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ يستر بالإسلام ما سبق من الكفر وأعماله ﴿رَّحِيمٌ﴾ بمن هداه إلىٰ الإيمان.

ثم يقرِّر الله تعالىٰ أن المشركين نجس، ويبني عليه عز وجل حكمًا واضحًا وهو: أن علىٰ المسلمين منع المشركين من القرب ـ مجرد القرب ـ من المسجد الحرام، فيقول عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ

بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾

أي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في كل الأزمان والبلدان، اعلموا ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ باطنًا، لكفرهم، وظاهرًا، لأنهم لا يتطهَّرون من الجنابات، ولا يجتنبون النجاسات، والحرم مكان طاهر مقدَّس، وبناء عليه ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ مجرد اقتراب، فضلًا عن الدخول فيه فهو: ممنوع ممنوع، وحرام حرام، فلا تمكنُّوهم من ذلك، بل امنعوهم منه منعًا باتًّا.

وكانت بداية هذا المنع في العام التاسع الهجري، ولمَّا صدر الأمر بمنع هؤلاء المشركين من دخول منطقة الحرم: خاف أهل مكة من وقف حالهم، وقطع تجاراتهم، وما يسببه ذلك من فقر وجوع، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ!!

فأنزل الله تعالىٰ ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ﴾ أي فقرًا ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ وقد أنجز الله وعده، حيث أرسل المطر عليهم مدرارًا؛ فكثر خيرهم، واطمأنوا علىٰ أنفسهم وأهليهم وأحوالهم، وما يزالون حتىٰ اليوم في غنى وفير، وخير عميم، تظلِّلهم دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وحتىٰ تظل قلوبهم معلَّقة بالله تعالىٰ: فقد قيَّد ربنا هذا الغنىٰ بمشيئته حيث قال: ﴿إِن شَآءَ﴾ ويظل كذلك التنبيه الدائم إلىٰ أنه سبحانه المتفضِّل في ذلك وغيره.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيمٞ﴾ في تحقيق الآمال.

وبهذا أصبحت أحكام الشرك والمشركين، من البراءة منهم، وقطع العهود معهم، ووجوب قتالهم، ومنعهم من دخول الحرم واضحة لا خفاء فيها، ولا لبس حولها، ولذلك: تنتقل الآيات إلىٰ الحديث عن أهل الكتاب وأحكامهم، إذ يقول الله تعالىٰ:

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

بعد أن انتشر الإسلام، وعلَت كلمته، وقوي المسلمون، وصارت لهم دولة وشوكة: كلَّفهم الله تعالىٰ بردِّ الناس إلىٰ دين الله الحق، وإنقاذهم من الباطل الذي يستعبدهم، ويعيشون فيه، ويرضون به.

ولمَّا كان الموقف ـ بهذا الخصوص ـ مع الكفار ينتهي إلىٰ واحد من أمرين؛ وهما:

دخولهم في الإسلام حتىٰ يهتدوا بنوره، وينتفعوا بخيره، **أو قتالهم**، حتىٰ لا يكونوا حربًا علىٰ الإسلام وأهله، فإن الموقف ـ بهذا الخصوص ذاته ـ مع أهل الكتاب، أي اليهود والنصارىٰ، أوسع بعض الشيء، حيث ينتهي إلىٰ واحد من ثلاثة أمور، وهي: **دخولهم في الإسلام** حتىٰ يهتدوا بنوره، وينتفعوا بخيره، **أو يدفعون للدولة أموالًا**، نظير ما يستفيدون به من خدمات، وهم راضون، ودون تمنُّع أو اعتراض، **أو إن لم يحدث الأول أو الثاني يكون قتالهم**؛ حتىٰ لا يكونوا حربًا علىٰ الإسلام وأهله.

وعلىٰ هذا: يكون معنىٰ الآية الكريمة: يا أيها الذين آمنوا: ﴿قَٰتِلُواْ﴾ الذين يتصفون بهذه الصفات من أهل الكتاب لأنهم:

أولاً: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾أي: لا يعرفونه حق المعرفة، ﴿وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

ثانياً: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ في الكتاب والسنة.

ثالثًا: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: لم يدخلوا في الإسلام، بعد أن عرَّفتموهم ودعوتموهم إليه، قاتلوهم ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ أي: يقبلوا دفعها ﴿عَن يَدٖ﴾ وغير امتناع ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أي: راضون بِسَرَيان أحكام الإسلام عليهم.

أهل الكتاب هؤلاء: يذكر الله تعالىٰ من مقالاتهم، وأوصافهم، وأحوالهم، ما يلي:

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٣٠﴾

أي: ﴿وَقَالَتِ﴾ بعض فرق ﴿ٱلۡيَهُودُ﴾ واشتهر في الجميع ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ﴾ عيسىٰ ﴿ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: قول هؤلاء وهؤلاء ﴿قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾ أي: يتفوَّهون به دون دليل علىٰ ما يقولون: لا هؤلاء، ولا هؤلاء.

﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أي: يشابهون به، ويسايرون ﴿قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ﴿مِن قَبۡلُ﴾ هؤلاء: ﴿قَٰتَلَهُمُ﴾ لعنهم ﴿ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق ويضلون عنه مع قيام الدليل الواضح عليه، وهو وحدانية الله.

أهل الكتاب هؤلاء:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾

يعني: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ اتخذ أهل الكتاب هؤلاء ﴿أَحۡبَارَهُمۡ﴾ علماءهم ﴿وَرُهۡبَٰنَهُمۡ﴾ عُبَّادهم ونُسَّاكهم ﴿أَرۡبَابٗا﴾ يطيعونهم في التحليل والتحريم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، واتخذوا كذلك ﴿ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ إلهًا؛ حيث جعلوه ابن الله.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ في التوراة، أو في الإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ المستحق للعبادة ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزَّه وتعالىٰ ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ معه من هذه الآلهة المزعومة أو من غيرها.

هؤلاء: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢﴾

أي: ﴿يُرِيدُونَ﴾ يريد هؤلاء، ويرغبون، ويحاولون ﴿أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ﴾ دين ﴿ٱللَّهِ﴾ وشريعته، وذلك ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: بأقوالهم فيه، وأكاذيبهم عليه، والملاحظ: أنهم يريدون ويحاولون ويفعلون ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ﴾ ما يريد من خذلانهم، ونشر دينه، وانتصار دعوته، وهكذا: يتم الله ﴿نُورَهُۥ﴾ ويُعلي كلمته ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ذلك.

إنَّ الذي يبطل كيدهم، ويخيِّب سعيهم، ويُتِم نشر نور الإسلام:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾

أي: ﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمدًا ﷺ ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ للدنيا كلها ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: الإسلام، وذلك ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ أي الإسلام ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ويُعلي أهله علىٰ أهل الدنيا كلها، حتىٰ ينشروا العدل والسلام، وسوف يتحقق ذلك دائمًا بإذن الله ﴿وَلَوۡ كَرِهَ﴾ ذلك ﴿ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

لقد بيَّن الله عز وجل انحراف أهل الكتاب الذين ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ يشرِّعون لهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] !!

كما بيَّن أن أهل الكتاب هؤلاء، وكل أهل الكفر: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٢] !!

بعد هذا أخذ يوضِّح فساد كثير ﴿مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ﴾ [التوبة: ٣٤] هؤلاء، كما أخذ يهدِّد ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤] من هؤلاء وأمثالهم بقوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾﴾

هذا خطاب من الله تعالىٰ للذين آمنوا، فيه التحذير من التشبُّه بـ ﴿ٱلۡأَحۡبَارِ﴾ وهم علماء اليهود، والتشبُّه بـ: ﴿ٱلرُّهۡبَانِ﴾ وهم عُبَّاد النصارىٰ، حيث إنهم كانوا ﴿لَيَأۡكُلُونَ﴾ يعني: يأخذون ﴿أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ عن غير طريق ما أحل الله، كالرشوة في الحكم وغير ذلك، لما كانوا ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس، ويمنعونهم ﴿عَن﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ واتباع دينه.

يقول سفيان الثوري رحمه الله: مَن فسد من علماء المسلمين، كان فيه شبه من اليهود، ومَن فسد من عُبَّاد المسلمين، كان فيه شبه من النصارىٰ.

ثم يقول ربنا عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ من هؤلاء الكثيرين ﴿مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ﴾ وكذلك من شابههم من المسلمين ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حسب ما أمر، وَوِفْق ما شرَّع!! هؤلاء وهؤلاء ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي: أخبرهم بأن لهم من الله عذابًا مؤلمًا شديدًا.

ولكن متىٰ، وأين يكون هذا العذاب؟

﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يعني: يكون هذا العذاب ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ﴾ يوقد ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ على هذه الكنوز، وتشتد النار، وتحمىٰ عليها، وساعتها ﴿فَتُكۡوَىٰ﴾ أي: تُحرَق بهذه الكنوز - التي حُمِيَت عليها نار جهنم - ﴿جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ﴾ يعني: من كل جهاتهم.

ويقال لهم: ﴿هَٰذَا﴾ العذاب جزاء ﴿مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ من الأموال، ومَنَعْتم خيره عن غيركم من أصحاب الحقوق فيه، ﴿فَذُوقُواْ﴾ يا من كنزتم جزاء ﴿مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ وتمنعون.

ثم يعود الحديث عن المشركين، الذين يتلاعبون في الأشهر الحرم بالتقديم والتأخير، فيقرِّر المولىٰ عز وجل الأشهر الحرم ويحدِّدُها قائلًا:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾

يعني: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ المعتد بها ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ للسنة ﴿ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا﴾ قمريًّا ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ ثابتة في اللوح المحفوظ، منذ خلق الله ﴿يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ والأزمنة، ﴿مِنۡهَآ﴾ أي: من هذه الشهور ﴿أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، والتي كان العرب قديمًا يحرِّمون القتال فيها، فلما جاء الإسلام: زادها حُرمة وتعظيمًا، فلا يجوز انتهاكها، كما أن الحسنات والسيئات تتضاعف فيها ﴿ذَٰلِكَ﴾ التحريم هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ المستقيم، الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، والذي أقره الإسلام، وليس ما كانت العرب تفعله من تقديم هذه الأشهر وتأخيرها.

﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ﴾ في الأشهر الحرم، ولا في غيرها من الشهور ﴿أَنفُسَكُمۡۚ﴾ بارتكاب المعاصي، وانتهاك الحرمات؛ حيث إنها أعظم وزرًا.

هذا، ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ يا مسلمون ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ﴾ يعني: كلهم في أي وقت ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ يعني: كلكم، في أي وقت.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الذين يتَّبعون تحديده لهذه الأشهر، وينفِّذون تعاليمه في قتال أعداء الأمة. هذا شرع الله:

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾

يعني: ﴿إِنَّمَا﴾ هذا ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾ الذي كان يُفعل في الجاهلية، من تغيير هذه الأشهر الحُرُم بالتقديم والتأخير، حسب رغبتهم في القتال هو ﴿زِيَادَةٞ﴾ منهم ﴿فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ حيث خالفوا به تحديد الله لهذه الأشهر، كما أنَّ هذا النسيء ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيقعون في الضلال والمخالفة وارتكاب الحرام؛ حيث ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ أي القتال في هذا الوقت أو ذاك ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ إذْ المهم أن تكون الأشهر أربعة، وليس المهم ما هي هذه الأشهر، وبذلك ﴿فَيُحِلُّواْ﴾ بأنفسهم ﴿مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾.

وهكذا، ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾ وحسبوها صحيحة حسنة.

﴿وَ﴾ لكن الله ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ المخدوعين بأفعالهم، ومخالفاتهم لشرع الله تعالىٰ.

بعد أن كانت الآيات السابقة من السورة الكريمة تأمر المسلمين بقتال غير المسلمين، ردًّا لعدوانهم وكفًّا لبغيهم، تبدأ الآيات التالية في حثِّ المسلمين علىٰ هذا القتال ووجوب المسارعة إلىٰ الجهاد إذا دعا الداعي، وطُلِبت النصرة، حيث يقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾

نزلت هذه الآية الكريمة: حينما دعا النبي ﷺ إلىٰ غزوة «تبوك» وشقَّ علىٰ الناس الخروج وتثاقلوا؛ لأن المسافة بعيدة بين المدينة وتبوك !! ولأن الزمان زمان عسرة ومشقة وفقر!! ولأن الجو كان حارًّا، بل شديد الحرارة!!

فعاتب الله المسلمين قائلًا: ﴿مَا لَكُمْ﴾ وما الذي حدث ﴿إِذَا﴾ دعيتم من رسول الله و﴿قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا﴾ أي اخرجوا للقتال معه ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾، ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ تباطأتم وتكاسلتم كأنكم مربوطون في الأرض.

هل يعني ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ومتاعها، بدلًا ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾؟

اعلموا أنه ليس ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي بالنسبة لها ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ لا يساوي شيئًا، حتىٰ تركنوا إليه، وتتركوا الجهاد. يا أيها الذين آمنوا:

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾

هذا تهديد للمتثاقلين عن الجهاد في سبيل الله، الذين رضوا بالحياة الدنيا، وشُغِلوا بمتاعها وزينتها فلم يلبُّوا الدعوة، ولم ينفروا ولم يخرجوا في سبيل الله؛ دفاعاً عن الدين، والعِرض، والأرض.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾ إلىٰ الجهاد ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ بالهزيمة، والذلة والهوان في الدنيا، أو بعذاب جهنم في الآخرة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ شديد الإيلام، أيضًا ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾ بكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ لنصرة دينه ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ في هذه الحالة؛ لأنه لا قيمة لكم، إذْ لا قيمة لمن لا يدافع عن دينه، ولا يدافع عن قِيَمه ومبادئه، بل لا قيمة لمن لا مبادئ له .﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ينصر دينه بغيركم في هذه الحال.

يا من تثاقلتم عن الخروج مع النبي ﷺ إلىٰ الجهاد!!

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾

يعني: يا مسلمون ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي: إن تثاقلتم عن نصرة النبي ﷺ فالله حافظه، وناصره، ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ سابقًا ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكة حينما همُّوا بقتله، وكان ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ فقط، اذكروا ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ مختبئين من الأعداء، وهو ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ من أجلي ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بنصره وتأييده وحفظه.

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ﴾ من بشائر النصر ﴿سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ فاطمأنَّ وهدأت نفسه ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ الله، أي: أيَّد حبيبه محمدًا ﷺ ﴿بِجُنُودٍ﴾ من جنده ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وتحقَّق النصر للدعوة، حيث ﴿جَعَلَ﴾ الله ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ فلا وزن لها ولا قيمة ولا بقاء، وصارت ﴿كَلِمَةُ اللَّهِ﴾ ودينه ودعوته، كما ﴿هِيَ﴾ دائمًا ﴿الْعُلْيَا﴾ فلا تعلوها دعوة.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب ينصر أولياءه ﴿حَكِيمٌ﴾ يذل أعداء دعوته.

بعد أن عاب الله علىٰ بعض المسلمين كسلهم وتثاقلهم عن الجهاد، وبعد أن هيَّأ النفوس لنوال نصر الله، يأمر بالنفير العام للجهاد، فيقول عز من قائل:

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

أي: اخرجوا جميعاً للجهاد في سبيل الله ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: مَن يملك سلاحًا ومَن لا يملك، أو شبابًا وشيوخًا، أو ناشطين ومتثاقلين ﴿وَجَاهِدُوا﴾ لنصرة الدين، وإعلاء كلمة الله ﴿بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الخروج والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من ترك الجهاد ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فضل الجهاد، وثوابه، وضرورة المسارعة إليه.

ولمَّا كان هذا الأمر عامًّا، والخروج للجهاد أصبح حتمًا: لم يتخلَّف عنه إلَّا المنافقين الذين قال الله عنهم:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يعني: ﴿لَوْ كَانَ﴾ ما دعوتهم إليه،وطلبت منهم الخروج معك بسببه ﴿عَرَضًا﴾ من متاع الدنيا ﴿قَرِيبًا﴾ سهل الحصول عليه، بدون أية مشقة أو صعوبة، والطريق إليه ﴿سَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي قريبًا!! ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ وذهبوا معك في هذه الحالة؛ بسبب ما فيها من مكاسب دنيوية، ﴿وَلَٰكِن﴾ ما دعوتهم إليه من الجهاد ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة، فوق أنها شاقة عليهم، ومتعبة لهم، ولذلك: ما ذهبوا معك، ولا اتبعوك.

وعندما تعود من ساحة الجهاد ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ لك معتذرين عن تخلُّفهم عن الذهاب معك، قائلين ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ الخروج ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ للقتال، ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بهذا الاعتذار الكاذب، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ﴾ فيه ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾. وهذا وعيد لهم وتهديد.

ولأنهم كانوا قد استأذنوا من النبي ﷺ في التخلُّف عن الغزوة، وأذن لهم، فقد عاتبه الله علىٰ ذلك بأرَقّ أنواع العتاب، حيث صدر هذا العتاب بالعفو الإلٰهي قائلًا لحبيبه عليه الصلاة والسلام:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾

أي: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ إذْ ﴿أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في التخلُّف عن الغزوة، وكان الأَوْلىٰ: ألَّا تأذن لهم ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ ويظهر ﴿لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ منهم في أعذارهم التي ساقوها ﴿وَتَعْلَمَ﴾ كذلك ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

ثم بيَّن ربنا أن المؤمن لا يستأذن ليتخلَّف عن الجهاد، بل هو يسارع إلىٰ ساحته بماله ونفسه، حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾

يعني: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ لا يتخلَّفون عن الجهاد، ولا يستأذنونك في أن لا ﴿يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ في سبيل الله، بل هم يسارعون إلىٰ الجهاد.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يجاهدون، ولا يعتذرون.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ **في التخلُّف عن الجهاد، هم** ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ **في هذه الأمور، وتشكَّكت فيها، وبسبب ذلك:** ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ﴾ **شكِّهم** ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ **يتحيَّرون، فلا ثبات لهم علىٰ مبدأ، ولا اطمئنان لنفوسهم في شيء.**

هؤلاء: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قد رغبوا في التخلُّف عن رسول الله ﷺ، والقعود عن الجهاد من أول الأمر.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يعني: هؤلاء الذين تخلَّفوا ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟﴾ بصدق ﴿ٱلْخُرُوجَ﴾ للجهاد معك، لَظهَر عليهم و﴿لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ﴾ من آلة الحرب والزاد، ﴿وَلَٰكِن﴾ لم يفعلوا ذلك.

كما ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ﴾ أي: أن الله تعالىٰ كره، ولم يُرد ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي خروجهم ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: ضعَّف رغبتهم، وكسَّلهم عن الخروج، ﴿وَقِيلَ﴾ من بعضهم لبعض ﴿ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ عن الجهاد من النساء والصبيان.

وهذا: ذم شديد لهم، وسخرية لاذعة من حالهم، في الوقت الذي فيه تقوية للمسلمين حيث إنهم، كما يقول رب العزة:

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يعني: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم﴾ خرج هؤلاء المنافقون معكم للقتال وصاروا في صفوفكم وبين جموعكم ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي فسادًا وشرًّا؛ لأنهم جبناء ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ بالنميمة ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ يريدون لكم ﴿الْفِتْنَةَ﴾ بإلقاء العداوة بينكم، خاصة: وأنَّ ﴿فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ ما يقولون سماع قبول وتأثُّر؛ لضعف إيمانهم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ المنافقين هؤلاء.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أي: ليست هذه أول مرة يريدون فيها الفتنة والشر لكم ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾ والهلاك لكم ﴿مِن قَبْلُ﴾ هذا اليوم.

وذلك: يوم قَدِمتم المدينة مهاجرين إليها، ويوم أحد حيث رجعوا عنكم، ولم يقاتلوا معكم، وصدُّوا الناس عن ذلك، إلىٰ غير هذا من صُوَر كيدهم للإسلام، وأفعالهم القبيحة.

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي: دبَّروا الحِيَل، وأشاعوا قولة السوء؛ إبطالًا للدين، وحربًا للدعوة، وظلُّوا علىٰ ذلك ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ والنصر للإسلام ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: دينه، وعَلَت رايته ﴿وَهُمْ﴾ لذلك ﴿كَارِهُونَ﴾.

هذا موقف المنافقين من الجهاد عامة، ومن الدعوة، ومن صاحبها عليه الصلاة والسلام، وهم ـ فوق ذلك ـ نماذج وفرق.

ويسوق الله عز وجل بيان بعض فرقهم هذه، فيقول جل جلاله:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

يعني: ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن هؤلاء المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لك يا محمد ﴿ائْذَن لِّي﴾ في التخلُّف عن الجهاد ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ وتوقعني في الإثم والفتنة إن لم تأذن لي، أو: لا تفتني بهلاك مالي وعيالي إن خرجت معك، أو غير ذلك من صُوَر الفتنة، التي زعموها، وتعلَّلوا بها لعدم الخروج.

﴿ أَلَا﴾ إنهم ﴿فِي ٱلْفِتْنَةِ﴾ وهي التخلُّف ﴿سَقَطُواْۗ﴾ في الإثم والهلاك.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المنافقين، لا نجاة لهم منها.

هؤلاء يا محمد:

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٞ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ٥٠﴾

أي: ﴿إِن تُصِبْكَ﴾ في بعض غزواتك ﴿حَسَنَةٞ﴾ من نصر وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ وتغمُّهم؛ لأنهم لا يحبون المؤمنين.

﴿وَإِن تُصِبْكَ﴾ في بعض غزواتك الأخرىٰ ﴿مُصِيبَةٞ﴾ من شدة وقتل لبعض أصحابك من المسلمين ﴿يَقُولُواْ﴾ شماتة، وافتخارًا ببُعدهم عن مواطن هذا القتال معك ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾ واحتياطنا ﴿مِن قَبْلُ﴾ هذه المصيبة، ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ عنك ويبتعدوا ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون بما حدث لك، مما لم يحدث لهم.

يا محمد، ويا أيها المؤمن في كل زمان، وفي أي مكان:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٥١﴾

يعني: ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾ ويحدث لنا من خير أو شر ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ وقدر علينا، ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ﴾ الذي يتولىٰ أمورنا، ويرعىٰ أحوالنا، ونؤمن بقضائه وقَدَره سبحانه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ونحن مؤمنون به، وأمَّا أنتم فلا تشعرون بحلاوة هذا الإيمان، ولا بلذَّة هذا التوكل علىٰ الله.

يا محمد، ويا أيها المؤمن في كل زمان، وفي أي مكان:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ٥٢﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المنافقين ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ أي: هل تنتظرون لنا ﴿إِلَّآ﴾ ما نراه نحن ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ النصر عليكم، أو الشهادة في سبيل الله، ﴿وَ﴾ أما ﴿نَحْنُ﴾ المؤمنون بالله، المُتَوَكِّلون عليه، المجاهدون في سبيله ﴿نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ وننتظر لكم ما نراه إحدى السوأتين:

الأولىٰ: ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ كما عذب مَن قبلكم من الكافرين في الأمم السابقة.

الثانية: ﴿أَوْ﴾ يصيبكم بعذاب يتم لكم ﴿بِأَيْدِينَا﴾ حيث نقتلكم ونبيدكم.

﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ بنا كما تحبون ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ بكم، وسنرىٰ نحن وأنتم لمن تكون العاقبة، والتي هي حتمًا: للمتقين.

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم **ثالثًا:** ﴿أَنفِقُواْ﴾ أموالكم ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ مهما أنفقتم ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ لأنه لم يُقصد به وجه الله؛ حيث ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ والله لا يتقبَّل إلَّا من المتقين.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

أي: أن الذي منع هؤلاء المنافقين من قبول الله تعالىٰ ﴿نَفَقَٰتُهُمْ﴾ هو هذه الأسباب:

أولًا: ﴿أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾.

ثانيًا: أنهم ﴿لَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لأدائها ﴿إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾.

ثالثًا: أنهم ﴿لَا يُنفِقُونَ﴾ أية أموال ﴿إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ لدفعها.

وبعد أن أمر الله النبي ﷺ، وكل مؤمن أن يقول لهؤلاء المنافقين ذلك ـ ما قرأناه منذ قليل ـ نهاه ﷺ وكل مؤمن عن الإعجاب بما هم فيه من أمور الدنيا، حيث قال جل وعلا:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

أي: يا أيها النبي، يا أيها المؤمن ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ﴾ أي: لا تنبهر بها، ولا تُفتَن بسببها.

حيث إنَّ ما أوتوه من أموال وأولاد: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ضياعًا لها، أو حرصًا عليها، وبُخلًا بها، وقلقًا نفسيًّا بسببها، ﴿وَ﴾ فوق ذلك ﴿تَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ تخرج ساعة سكرات الموت بصعوبة بالغة ﴿وَهُمْ﴾ في الوقت ذاته ﴿كَٰفِرُونَ﴾.

يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

نعم هؤلاء كافرون:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يعني: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ كذبًا ونفاقًا ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ يا مسلمون ﴿وَمَا هُم﴾ في الحقيقة ﴿مِّنكُمْ﴾ لأن عواطفهم ومصالحهم مع الكافرين، ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ﴾ مع ذلك ﴿قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون، ولذلك فهم يتظاهرون بأنهم منكم حتىٰ لا تقتلونهم لكفرهم الحقيقي. **هؤلاء:**

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

أي: أن هؤلاء المنافقين ﴿لَوْ يَجِدُونَ﴾ لأنفسهم ﴿مَلْجَـًٔا﴾ يلتجئون إليه، ويتحصَّنون فيه مثل: قلعة، أو جزيرة، ﴿أَوْ﴾ لو يجدون لأنفسهم ﴿مَغَٰرَٰتٍ﴾ جمع غار، وهو سرداب في الجبل ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ أو: أي مكان يدخلون فيه، ويختبئون منكم، ويبتعدون عنكم، لو يجدون ذلك، أو شيئًا منه ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ لذهبوا إليه، ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يُسرِعون في دخوله، والهروب منكم.

وهذا نموذج آخر من هؤلاء المنافقين:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾

يعني: هذا فريق آخر ﴿وَمِنْهُم﴾ وهم ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾ أي يعيبك ويطعن عليك ﴿فِي﴾ قسمة ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ أي: الزكاة، أو الغنائم. ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا﴾ ما يأملون لأنفسهم ﴿رَضُوا﴾، ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا﴾ ما ينتظرون ﴿إِذَا هُمْ﴾ فجأة ﴿يَسْخَطُونَ﴾ عليك، وينتقدون قسمتك وتوزيعك.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أي: ﴿وَلَوْ﴾ أن هؤلاء ﴿رَضُوا﴾ وقنعوا، بـ﴿مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وطابت أنفسهم به، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿قَالُوا﴾ بكل يقين ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي: كفانا فضل الله ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي: سيرزقنا من عنده، وسيؤتينا ﴿رَسُولُهُ﴾ كذلك من قسمه للصدقات والغنائم، ثم قالوا: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ﴾ وفضله وخيره ﴿رَاغِبُونَ﴾ في عطائه.

لو أنهم: رضوا، وقالوا ذلك لكان خيرًا لهم مما هم فيه.

بعد أن ذكر الله غمز المنافقين ولمْزهم على النبي ﷺ في قسمته للصدقات، أتبع ذلك ـ سبحانه ـ ببيان أنه: هو الذي قسمها ـ وليس رسوله ـ وهو الذي حدَّدها ـ وليس رسوله ـ وهو الذي بيَّن مصارفها، ولمن تُدفع ـ وليس رسوله، فقال جل وعلا:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ وهي زكاة المال تُدفع لهذه الأصناف الثمانية الآتية، أو لواحد منها، وهي:

أولاً: ـ الفقراء، والفقير: هو الذي لا يسأل الناس؛ لأن عنده ما يكفيه لوقته فقط.

ثانياً: ـ والمساكين، والمسكين: هو الذي يسأل؛ لأنه لا يجد شيئًا.

ثالثاً: ـ والعاملين عليها، وهم: الذين يقومون بجمعها من أصحابها وتوصيلها إلىٰ الإمام أو نائبه.

رابعاً: ـ والمؤلفة قلوبهم، وهم: الذين يؤلِّف الإمام قلوبهم علىٰ الإسلام والمسلمين، ومنهم مَن أسلم ومنهم مَن ظَّل علىٰ حاله.

وقد أوقف الصحابة هذا السهم في صدر خلافة أبي بكر رضي الله عنه، حينما قوي المسلمون، وهذا السهم اليوم مرهون بحال المسلمين قوة وضعفًا.

خامساً: ـ وفي الرقاب، وهم: العبيد الذين يريدون الحرية.

سادساً: ـ والغارمين، وهم: الذين تجمَّعت عليهم الديون، ولا يستطيعون لها سدادًا بأنفسهم.

سابعاً: ـ وفي سبيل الله، وهم: المجاهدون للأعداء، المدافعون عن الدين، والديار، والأعراض.

ثامناً: ـ وابن السبيل، وهو: المسافر البعيد عن دياره ونفذ ماله.

هذه الأنصبة، وتوزيعها علىٰ أصحابها المذكورين ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمصلحة لعباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في هذا التوزيع، كما هو حكيم في كل شيء سبحانه.

وبعد هذا التوضيح لتوزيع الصدقات الذي اقتضاه الردَّ علىٰ صنف من المنافقين، كانوا يعيبون علىٰ النبي ﷺ توزيعه للصدقات، يقدم الله تبارك وتعالى بيانه الحكيم لصنف ثالث من هؤلاء المنافقين، حيث يقول عز وجل:

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

أي: ﴿وَمِنْهُمُ﴾ أي: من المنافقين صنف آخر، وهم ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ﷺ بالكلام ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عليه ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: يفتح أذنه لكل أحد، ويصدِّق كل ما يقال، صدقًا أو كذبًا.

﴿قُلْ﴾ أيها العاقل ردًّا عليهم، وإبطالًا لكلامهم: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ يعني: سلَّمنا أنه أذن يستمع، ولكنه نِعْم الأذن؛ حيث يستمع الخير فقط، وليس الشر كما تدَّعون، وكان ـ ﷺ ـ أُذُن خير لأنه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ وآياته، ويصدِّق بهما، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيسمع منهم؛ لأنهم صادقون، كما أنه ﷺ ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ حيث أنقذهم من الكفر والضلال.

علىٰ كل حال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بالقول أو بالفعل: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

هؤلاء، ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢)﴾

يعني: يا أيها الذين آمنوا، هؤلاء ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ أنهم ما قالوا ذلك ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ نفاقًا منهم، وكذبًا عليكم، وخداعًا لكم، ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ﴾ وأَوْلىٰ ﴿أَن يُرْضُوهُ﴾ بالطاعة لتعاليمه ودينه وأوامره ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وذلك ﴿إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ حقًّا.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)﴾

يعني: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أي: هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّهُ﴾ فعلًا وصدقًا ﴿مَن يُحَادِدِ﴾ يعاند ويحارب ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: شرع الله، وذات رسوله، أو سُنَّة رسوله ﴿فَأَنَّ لَهُ﴾ جزاءً علىٰ فِعْلِه هذا ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ يُعذَّب ويقيم ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾.

حقًّا: ﴿ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ لهم ولأمثالهم.

والعجيب أن هؤلاء يخشون الفضيحة، يقول الله تعالىٰ:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤)﴾

أي: ﴿يَحْذَرُ﴾ ويخاف ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ من ﴿أَن تُنَزَّلَ﴾ من الله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: في شأنهم ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم﴾ وتخبرهم ﴿بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق والكفر، وبذلك: ينكشف سرُّهم، ويفتضح أمرهم عند رسول الله ﷺ والمؤمنين.

﴿قُلِ﴾ يا محمد، ويا أيها المؤمن لهم تهديدًا وتخويفًا: ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ ما شئتم بالإسلام وأهله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ وكاشف ما كنتم ﴿تَحْذَرُونَ﴾ أن يظهر من نفاقكم وكفركم وعداوتكم للمسلمين.

علىٰ كل حال: هؤلاء من طبيعتهم أنهم يستهزؤون بالإسلام وأهله، ويستهزؤون بالله وآياته، فإذا ما واجهتهم بأقوالهم ومواقفهم واستهزائهم؛ جَبُنوا وقالوا: إنَّما كُنَّا نمزح ونلعب، اقرأ هذه الآيات الكريمة، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يقول المفسرون: إن المنافقين الذين خرجوا مع المسلمين في غزوة تبوك قالوا فيما بينهم وبين أنفسهم علىٰ المسلمين: «إنهم جبناء»، وليسوا أهل حرب، فأنزل الله هذه الآية والتي بعدها، وفيها: أنهم سيقولون عندما يواجهون بما قالوه: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ﴾.

ولمَّا واجههم النبي ﷺ، بعد أن نزل عليه القرآن: قالوا: ما كنا جادين فيما نقول: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ﴾ أي نتسلىٰ فى الطريق بما يتسلىٰ به الناس من الكلام، قال رب العزة لحبيبه ﷺ: قل لهم: هذا استهزاء، ثم وبِّخهم عليه وقل: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾؟ فإذا اعتذروا قل لهم:

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يعني: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ حيث لا محلَّ لاعتذاركم ولا قبول له؛ لأنكم تجرَّأتم بما لا يليق ولا ينبغي أبدًا علىٰ مقام الله عز وجل، وعلىٰ مقام رسوله ﷺ، و ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ الذي ادَّعيتموه، وأظهرتموه، باستهزائكم هذا.

ومع ذلك: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ تتوب إلىٰ الله، وتُخلص في إيمانها، وتتخلّص من هذا النفاق ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ﴾ أخرىٰ عدلًا منا ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ بإصرارهم علىٰ الكفر والنفاق والاستهزاء.

وبعد هذا البيان لنماذج من المنافقين، يبيّن المولى صفات هؤلاء المنافقين بشكل عام فيقول:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۢ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يعني: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ كتلة واحدة وهم يتّصفون بشكل عام بست صفات، هي:

الأولىٰ: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ متشابهون تمامًا في كل شيء باطل.

الثانية: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ من الكفر والمعاصي.

الثالثة: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ كل معروف يأمر به الشارع.

الرابعة: بُخلاء ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في سبيل الله.

الخامسة: غافلون عن ذكر الله ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ فهم في ضلال، حيث نسوه بترك طاعته، فنسيهم بحرمانهم من لطفه وعفوه.

السادسة: بعيدون عن الهداية، خارجون عن طريق الحق ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

وعلىٰ هذا فما جزاؤهم؟

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

هذا جزاؤهم أعدَّ الله لهم، والكفار معهم ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها فيهربون، ولا يموتون فيها فيستريحون.

﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ جزاؤهم وعقابهم ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: طردهم بهذا من رحمته ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [النحل: ٨٥].

وفوق كل هذا، ﴿وَلَهُمْ﴾ من الله ﴿عَذَابٌ﴾ لا يعرف حجمه ولا نوعه ولا مقداره أحد وهو ﴿مُّقِيمٌ﴾ بهم ومعهم وعليهم دائمًا.

أنتم أيها المنافقون الكافرون:

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٦٩﴾

أي: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أنتم مثل الذين كفروا من قبلكم في الفعل، وفي الجزاء، فهم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ في الجسم، وفي الصحة، وفي البطش، وهم كانوا أيضًا ﴿أَكْثَرَ﴾ منكم ﴿أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾، ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾ وتلذذوا ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي: نصيبهم من هذه الأشياء، بالطول وبالعرض، دون مراعاة لمرضاة الله تعالىٰ، واتباع رسله، والانتفاع بآياته سبحانه ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾.

وأنتم استمتعتم بنصيبكم من هذه الأشياء مثلهم، علىٰ نحو شيء كما فعلوا هم، وكذلك ﴿خُضْتُمْ﴾ وساهمتم وشاركتم في الباطل من الاستهزاء بالله وآياته ورسله ﴿كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾.

و﴿أُوْلَـٰئِكَ﴾ الذين من قبلكم ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ضاعت ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ وضاع ثوابها في ﴿ٱلْأٓخِرَةِ﴾.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ حقيقة ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم حُرموا من الثواب، وأنتم مثلهم سواء بسواء.

ثم يذكِّرهم المولىٰ ـ فضلًا منه ـ بما أصاب الأمم السابقة ـ عدلًا منه ـ حتىٰ يحذروا أن يصيبهم مثل ما أصابهم!! فإذا ما انتفعوا بهذا التذكير، واتعظوا من مصائر السابقين: آمنوا.

يقول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يعني: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ ويعلموا نبأ، أي خبر ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المكذِّبين أمثالهم، ويعرفوا ماذا حدث لهم فيتعظوا، فيؤمنوا؟ كـ: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ أهلكهم الله لتكذيبهم وكفرهم بالطوفان فغرقوا، ﴿وَعَادٍ﴾ قوم هود أهلكهم الله بالريح العقيم، ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح أهلكهم الله بالزلزال، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﷺ أهلكهم الله بسلب نعمه عنهم، ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ أهلكهم الله بالظُلَّة، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ وهي قرىٰ قوم لوط، أهلك الله أصحابها بأن قلب بلادهم، وجعل عاليها سافلها.

وما ذلك العذاب إلَّا لأنهم: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدلائل الواضحات علىٰ صدقهم، فكذبوها وما آمنوا بها، ففعل الله بهم ما فعل، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فيما فعل. ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ باختيارهم الكفر علىٰ الإيمان.

بعد أن بيَّن الله تعالىٰ لنا صفات المنافقين لنتجنَّبها، وجزاءهم لنفرَّ منه، ونبغضه، يبيِّن لنا تبارك وتعالى صفات المؤمنين لنتحلَّىٰ بها، كما يبيِّن جزاءهم لنعمل علىٰ نواله والوصول إليه، حيث يقول عز وجل:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

يعني: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ كتلة واحدة مترابطة متماسكة، وهم يتصفون بشكل عام بهذه الصفات الست:

الأولىٰ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ تربطهم الولاية للحق، والتناصر في الخير، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ.

الثانية: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ جنس المعروف، وهو ما أقرَّه الشرع وحسَّنه، ويحبونه، ويؤدونه أيضًا.

الثالثة: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ جنس المنكر، وهو ما نهىٰ عنه الشرع وقبَّحه، ويبغضونه، ويبتعدون عن الوقوع فيه.

الرابعة: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ فيذكرون الله تعالىٰ في كل آن وحال.

الخامسة: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ليسوا بخلاء بمال الله علىٰ خلق الله.

السادسة: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل أمر ونهي.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المؤمنون والمؤمنات، الموصوفون بهذه الصفات والموصوفات ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ بواسع رحمته.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ قادر لا يعجزه شيء، عن مكافأة المطيع، وعقاب العاصي ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع كل شيء في محله.

هل بعد هذه الرحمة الواسعة لهم عند الله شيء آخر:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾

هذا جزاؤهم: أعد الله لهم ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ في منظر بديع، وجو رائع ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ هي لهم، لا يُخرَجون منها، ولا تُسلب منهم، وأعد لهم أيضًا ﴿مَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: منازل تستريح فيها النفس وتطيب فيها الروح، وهذه المساكن ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة لا يعتريها الفناء، ولا يعتريها تحوُّل، فوق أنها موصوفة بجريان الأنهار من تحتها، وأيضًا أهلها موصوفون بالخلود.

ولهم ـ فوق كل هذا ـ ﴿رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ تعالىٰ ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم وأفضل من كل هذا، حقًّا ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وبعد أن ميَّزت الآيات بين المؤمنين والمنافقين، وضحت تمامًا صفات المنافقين؛ أيضًا: بعد أن أمرت آيات السورة – فيما سبق ـ بقتال المشركين وأهل الكتاب تأمر الآيات هنا بقتال الكفار والمنافقين، حيث يقول ربنا عز وجل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

يعني: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ باللسان والحجة، وليس بالسيف لنطقهم بالشهادتين وكل مَن كان كذلك فمثلهم، ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كن شديدًا معهم، هؤلاء بالسيف، وهؤلاء بالغلظة في القول، هم يستحقون ذلك. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ أي: مسكنهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ مصيرهم.

المنافقون هؤلاء: أمرهم عجيب؛ حيث:

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

وهذه الآية: توضح الحكمة في الأمر بقتالهم.

والمعنى: جاهد المنافقين واغلظ عليهم؛ لأنهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ أي: يستهزئون بالله وآياته ورسوله، وعندما يواجهون يكذّبون، ويحلفون بالله ما قالوا شيئًا، ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟﴾ وما قالوه: هو ﴿كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ وهو هذا الاستهزاء ﴿وَ﴾ لقد ﴿كَفَرُوا۟﴾ بهذا ﴿بَعْدَ﴾ أن أظهروا ﴿إِسْلَـٰمِهِمْ﴾، كما أنهم ﴿وَهَمُّوا۟﴾ بالكيد للإسلام وأهله ﴿بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ أي: بما لم ينالوه، حيث فوّت الله عليهم ذلك، وأبطل كيدهم.

﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟﴾ وما عابوا وأنكروا وكادوا للإسلام وأهله ﴿إِلَّآ﴾ بعد ﴿أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ حيث أخذوا من الغنائم، فاغتنوا بعد فقرهم الذي كانوا فيه.

﴿فَإِن يَتُوبُوا۟﴾ عن النفاق ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان والتوبة من النفاق ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ كلها ولا في السماء ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينجِّيهم من هذا العذاب.

وبعد أن كلَّف الله المسلمين بجهاد المنافقين هؤلاء، وبعد أن بيَّن الحكيم الخبير سبب هذا الجهاد لهم، يزيدنا الحق تبارك وتعالىٰ تعريفًا بصفاتهم ونماذجهم أكثر وأكثر فيقول جل وعلا:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

أي: ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن المنافقين ﴿مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ قائلًا: ﴿لَئِنْ آتَانَا﴾ الله ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ المال ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ منه وندفع زكاته ﴿وَلَنَكُونَنَّ﴾ بسبب هذا الغنىٰ ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حيث نشكره بالإيمان، والعمل الصالح، ودفع الزكاة.

﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾

يعني: وحينما ﴿آتَاهُم﴾ الله المال ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ ونالوا ما يتمنونه، وأصبحوا أغنياء قادرين علىٰ الصدقة والبذل والعطاء ﴿بَخِلُوا بِهِ﴾ أي بهذا المال عن التصدق منه ﴿وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ وانصرفوا إلىٰ أموالهم وأعمالهم، وهم معرضون عن طاعة الله، مُصرُّون علىٰ هذا البخل، مرتدِّين عن الإسلام، ممتنعين عن دفع الزكاة. فماذا حدث لهؤلاء؟ يقول الله تعالى:

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾

أي: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ الله وأورثهم ﴿نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لا يتخلصون منه، عقابًا لهم، والسبب ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ بالتصدُّق من المال إذا آتاهم، وقد آتاهم الله المال، ولكنَّهم أخلفوا الوعد، وهذه من آيات المنافق.

يقول المصطفى ﷺ: «**أربعٌ من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتىٰ يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر**». وفي رواية أخرىٰ: «**وإذا أؤتمن خان**».

وكذلك: بسبب ما ﴿كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ فيه، من هذا الوعد.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

يعني: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ ألم يعلم هؤلاء ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ عز وجل ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ الذي بيَّتوه في أنفسهم من العزم علىٰ عدم دفع الصدقات!

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ أيضًا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ عز وجل: يعلم ﴿نَجْوَىٰهُمْ﴾ التي يتناجونها فيما بينهم من الطعن علىٰ الإسلام ومبادئه وأهله!

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ كذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ عز وجل ﴿عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فلا يغيب عنه شيء في الأرض، ولا في السماء.

هؤلاء.. اجتمع فيهم من الصفات السيئة: منع الزكاة، وانعدام الصلاح، وخُلْف الوعد، والكذب.

كما يضاف إلىٰ هذه الصفات: أنهم يعيبون المؤمنين، الذين يتصدقون، يقول تعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

أي: أن هؤلاء المنافقين هم ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ يعيبون ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتبرعين بأموالهم ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين، والذين يدفعونها ﴿فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ زيادة علىٰ زكاة أموالهم.. بالرغم من أنهم ﴿لَا يَجِدُونَ﴾ عندهم من المال ﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي: إلَّا القليل، هؤلاء المنافقون ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ من هؤلاء المؤمنين الصادقين.

وبذلك: فهم يعيبون المكثِّرين في الصدقات، ويسخرون من المقلِّين فيها.

﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ جزاء على سخريتهم هذه، ﴿وَلَهُمۡ﴾ عنده سبحانه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم يناسبهم وأفعالهم.

ولمَّا نزلت هذه الآيات، وانكشف أمر المنافقين، وعرفهم المؤمنون: جاؤوا إلى النبي ﷺ يعتذرون- من باب تغطية الفضيحة، وليس من باب التوبة - ويقولون: استغفر لنا يا محمد، وهنا: هَمَّ النبي ﷺ أن يستغفر لهم، فأنزل الله قوله تعالى:

﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠﴾

وفي هذه الآية: يخبر الله تعالى نبيه ﷺ، بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلًا للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم، ولو سبعين مرة، فإن الله لا يغفر لهم؛ لأنهم ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وصاروا فاسقين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

لقد كان النبي ﷺ شفوقاً بأمته، راغباً حتى في هداية الضالين منهم، إذْ يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية قال: «**أسمع ربي قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة؛ لعل الله أن يغفر لهم**».

فأنزل الله من شدة غضبه عليهم قوله تعالى:

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

ثم يذم الله عز وجل المنافقين المتخلِّفين عن صحبة رسول الله في غزوة تبوك قائلًا:

﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١﴾

أي: ﴿فَرِحَ﴾ هؤلاء المنافقون ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ عن الذهاب مع رسول الله ﷺ وصحابته إلى غزوة تبوك ﴿بِمَقۡعَدِهِمۡ﴾ وتخلُّفهم بعد خروجه ﷺ ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: مخالفين له، ولأنهم ليسوا كالمؤمنين الذين يسارعون إلى الجهاد في سبيل الله فقد ﴿كَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وليس هذا فقط، بل ﴿وَقَالُواْ﴾ لبعضهم البعض، وللمؤمنين أيضا ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ لأن القحط شديد،

والحر أشد، والغزو لا يناسب في هذا الظرف، ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي ستصيرون إليها بسبب كفركم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ من أيام الدنيا، التي تمتنعون فيها عن الجهاد ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يعني: ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ بسبب فرحهم هذا ضحكًا ﴿قَلِيلًا﴾ في الدنيا، ﴿وَلْيَبْكُوا﴾ بسبب ما يلاقونه من عذاب، بكاءً ﴿كَثِيرًا﴾ في الآخرة ﴿جَزَاءً﴾ وفاقًا ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ويقترفون من أعمال سيئة.

واذهب يا محمد أنت ومن معك من أصحابك إلىٰ الغزو، والجهاد في سبيل الله:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

أي: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ فإن عدت بسلامة الله من غزوتك ﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء المنافقين، لم تتب من نفاقها، ولم ينصلح بالإيمان حالها، وجاءت غزوة أخرىٰ ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ﴾ أي: الذين لم يتوبوا ﴿لِلْخُرُوجِ﴾ معك للغزو، فعاقبهم بعدة أمور:

الأول: ﴿فَقُل﴾ لهم ستحرمون من هذا الشرف؛ حيث ﴿لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ للجهاد في سبيل الله ﴿وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ لأنه لا أمان لكم، ولا وفاء لعهد عندكم، ولا صِدْق في قول لديكم، والدليل علىٰ ذلك: أنكم ﴿رَضِيتُم بِالْقُعُودِ﴾ والتخلف عن الجهاد ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقت الحاجة إليكم، إذن: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ المتخلِّفين عن الغزو والجهاد من النساء والصبيان، والعاجزين عن الجهاد، هذا عقاب.

والعقاب الثاني لهم:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾

لمَّا مات رأس النفاق عبد الله بن أُبي، وكان له ولد مسلم صالح، دعا النبيﷺ

ليصلي عليه رجاء أن يغفر الله له؛ فصلّىٰ عليه النبي ﷺ ترضية لولده، **فنزلت هذه الآية التي تفيد** مَنْع النبي من صلاة الجنازة عليهم، ومنعه كذلك من الدعاء لهم بالمغفرة؛ لأنهم ليسوا بأهل لذلك، حيث كفروا بالله ورسوله، وماتوا علىٰ ذلك.

والعقاب الثالث: احتقار ما هم فيه من متاع الدنيا، حيث يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

أي: لا تُفْتن بما هم فيه من متاع زائل، فهو عذاب لهم في الدنيا والآخرة.

ثم يزيدنا الله تبارك وتعالى بياناً عنهم، وعن مواقفهم.. فيقول جل وعلا:

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

يعني: هؤلاء المنافقون لا يتخلَّفون عن الجهاد إذا دعوتهم أنت فقط للجهاد، بل إنه ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من عند الله تعالىٰ في القرآن يأمرهم فيها قائلًا: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وثقوا في نصره، وأخلصوا له ﴿وَجَٰهِدُوا۟﴾ في سبيله ﴿مَعَ رَسُولِهِ﴾، ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ﴾ في القعود، وعدم الخروج معك ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ﴾ أي: الأغنياء ﴿مِنْهُمْ﴾ يعني: من هؤلاء المنافقين ﴿وَقَالُوا۟﴾ لك ﴿ذَرْنَا﴾ اتركنا ﴿نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ الذين لهم أعذار، في التخلف عن الجهاد. **وهكذا:**

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾

أي: ﴿رَضُوا۟﴾ لأنفسهم ﴿بِأَن يَكُونُوا۟﴾ من المتخلفين ﴿مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ من النساء والصبيان والعاجزين عن الجهاد وذلك: لأنه ﴿طُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لاختيارهم الكفر والنفاق بدلًا من الإسلام ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما في الجهاد من الفوز، وما في التخلُّف من الشقاء.

إذا كان هؤلاء المنافقون قد تخلَّفوا عن الجهاد في سبيل الله!!

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾

نعم، إن تخلَّف المنافقون عن الجهاد: فقد نهض للغزو مَنْ هُوَ خيرٌ منهم، وهم ﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ حيث ﴿جَٰهَدُواْ﴾ في سبيل الله ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ﴾ وبذلك: نالوا شرف الدنيا، ونعيم الآخرة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ﴾ في الدنيا بالنصر والغنيمة، وفي الآخرة بالجنة والكرامة، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أيضًا ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون. **حيث:**

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

جعلنا الله تعالىٰ معهم من أهل هذا الفوز العظيم، آمين يا رب العالمين.

فالبيان الذي سبق عرضه في الآيات الكريمة: كان عن المنافقين من أهل المدينة، وهناك منافقون غيرهم، وهم منافقو الأعراب، أهل البادية.

يقول عنهم كذلك رب العزة جل وعلا:

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾

يعني: ﴿وَ﴾ عند غزوة تبوك ﴿جَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ أي: المعتذرون بأعذار كاذبة ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ إلىٰ رسول الله ﷺ ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في التخلُّف عن الجهاد، ﴿وَ﴾ فريق آخر من منافقي الأعراب ﴿قَعَدَ﴾ عن الجهاد وتخلف، ولم يعتذر عن هذا التخلُّف مثل الفريق السابق، وهؤلاء هم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ أي: كفروا بالله وبرسوله مثل مَن سبقهم.

علىٰ كل حال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: المنافقين، سواء مَن اعتذروا كاذبين، ومَن لم يعتذروا أصلًا، يعني: سيصيب هؤلاء وهؤلاء ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم لهم في الدنيا والآخرة.

وإذا كان هؤلاء المنافقون المتخلِّفون عن الجهاد مَن اعتذر منهم كذبًا، ومَن لم يعتذر لهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فإنه من رحمة الله تعالىٰ:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾

هؤلاء هم المتخلِّفون بحق، المعذورون عند الله، بل المأجورون علىٰ نياتهم وهم: الضعفاء من كبار السن، والمرضىٰ، والفقراء الذين لا يجدون ما يجهِّزون به أنفسهم، ولا ينفقونه خلال رحلة الجهاد.

هؤلاء: ليس عليهم ﴿حَرَجٌ﴾ إثم وذنب ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ آمنوا، وأخلصوا، وأطاعوا، في السر والعلانية.

حيث إنه ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الصادقين ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ للعتاب والمؤاخذة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن يتخلَّف بعذر حقيقي، صادق فيه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم. كذلك أيضًا:

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

أي: ﴿وَلَا﴾ حرج ولا إثم ولا ذنب كذلك ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾ قبل الخروج للغزو ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي: تعطيهم ما يشاركون به في الجهاد معك؛ لأنهم لا يملكون شيئًا ﴿قُلْتَ﴾ لهم: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ يعني: ليس عندي ما يمكِّنكم من الجهاد معي، فأنتم معذورون حقيقة، فإذا قلت لهم ذلك، وعرفوا أنَّهم لن يتمكنوا من شرف الجهاد معك: ﴿تَوَلَّوا۟﴾ انصرفوا ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ أي: تسيل ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾ بسبب أنهم ﴿أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ للجهاد، وفي الجهاد.

وهؤلاء: هم المؤمنون الصادقون، أصحاب الأعذار الصادقة، المقبولة، وليس عليهم من سبيل للعقاب أو العتاب.

لقد تكلَّمنا فيما سبق في حديث القرآن الكريم عن المنافقين أصحاب الأعذار، الذين يتخلَّفون عن ساحات الجهاد، وقد ظهر لنا: أنَّ من هؤلاء مَن تكون أعذارهم غير مقبولة، ومنهم: مَن تكون أعذارهم مقبولة، فهي: إما بسبب الضعف أو المرض، أو الفقر.

وهؤلاء أصحاب الأعذار المقبولة: لا حرج عليهم، ولا مؤاخذة لهم ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ

وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١] بل ليس عليهم من سبيل حتىٰ لمجرد العقاب علىٰ تخلُّفهم هذا.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ للمؤاخذة والعقاب، في الدنيا وفي الآخرة ﴿عَلَى﴾ المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ في التخلُّف عن الجهاد ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ في الصحة، فلا مرض يمنعهم، وفي المال، فلا فقر يقعدهم.

ولكنهم ﴿رَضُوا۟﴾ وأحبوا ﴿أَن يَكُونُوا۟﴾ بقعودهم وتخلُّفهم هذا ﴿مَعَ﴾ النساء ﴿ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي: المتخلِّفات، وهكذا ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بالكفر ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ النافع لهم من الضار بهم. **هؤلاء**:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾

يعني: هؤلاء﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ عن التخلُّف الذي كان منهم ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ وعدتم ﴿إِلَيْهِمْ﴾ من الغزو والجهاد في سبيل الله.

﴿قُل﴾ لهم: ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا۟﴾ بالباطل كذبًا، فنحن ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدِّقكم فيما تعتذرون به، حيث ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ﴾ بأن أوحىٰ إلىٰ رسوله ﷺ بالخفي والمستور ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وأحوالكم وأكاذيبكم.

وليس هذا فقط، بل ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ هل تتوبون أو تثبتون علىٰ كفركم؟ ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا، أو ذاك ﴿تُرَدُّونَ﴾ بالموت، ثم بالبعث ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وهو الله عز وجل!! ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ ويخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ويجازيكم عليه.

ولأنهم كاذبون في اعتذاراتهم إليكم ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ من الغزو إليهم!! **فإنهم**:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾

يؤكدون أعذارهم الكاذبة بالأيمان الكاذبة أيضاً، بعد عودتكم إليهم، وذلك ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي: تتركوهم بلا توبيخ أو عِتاب أو مَلامة، يقول تعالىٰ: إذا حدث منهم ذلك ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي: اتركوهم، وأهملوهم.

حيث: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أنجاس الباطن والظاهر، لا تنفعهم موعظة، ولا يُصْلِحُهم شيء. ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مَأْواهُمْ﴾ أي: مصيرهم إلىٰ ﴿جَهَنَّمُ﴾ وبئس المصير ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

إن هؤلاء أيها المسلمون:

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

يعني: سيحلفون لكم أولًا ضمانًا لعدم أَذِيتكم لهم، وعتابكم لتخلُّفهم.

والآن: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ كي لا تعرضوا عنهم وتقاطعوهم، بل ﴿لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ حتىٰ لا تتعطَّل مصالحهم، وتتضرَّر منكم دنياهم.

فإن فعلوا ذلك، فلا ترضوا عنهم ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ فلا فائدة من رضاكم هذا لهم؛ لأنه لا ينفع رضاكم مع سخط الله عليهم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعته، ومنهم هؤلاء المنافقين الأعراب، فلا تكونوا مثلهم.

ثم يبيِّن الله عز وجل طبيعة الأعراب الذين لم يهذِّبهم الإيمان، بقوله عز وجل:

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ وهم سكان البادية والصحراء، هؤلاء: ليسوا جميعًا **علىٰ نقاء وصفاء**، مثل جو حياتهم، بل إنَّ أكثرهم ﴿أَشَدُّ كُفْرًا﴾ **بالله ورسوله** ﴿وَنِفَاقًا﴾ **للمؤمنين**؛ لجفائهم وقوَّتهم، وبُعْدِهم عن مجالس العلم، ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أي: **أحق من غيرهم** ﴿أَلَّا

يَعۡلَمُواْ حُدُودَ﴾ وأحكام ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الدين والشرائع ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما هم فيه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يختاره لهم من الهداية، أو عدمها.

هؤلاء هم الأعراب بصفة عامة:

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٩٨﴾

يعني: ﴿وَمِنَ﴾ أي: ومن هؤلاء ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ فريق كافر منافق ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ **أي:** يُعِدُّ ما يدفعه من مال الزكاة ﴿مَغۡرَمًا﴾ خسارة وغرامة؛ حيث يدفعه فقط خوفًا من المسلمين، كما أن هذا الفريق ﴿يَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ ينتظر أن يدور الزمان عليكم، وتذهب ريحكم، وتسقط دولتكم، فيتخلَّص من هذا الإنفاق.

﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ تدور بإذن الله؛ فيكون الهلاك لهم، لا لكم أيها المسلمون.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده، ومنهم هؤلاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعال عباده، ومنهم هؤلاء.

وإذا كان هؤلاء الأعراب ـ كما رأينا ـ شديدي العداوة للمسلمين!! فإن منهم صالحين يقول الله تعالىٰ:

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٌ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٩٩﴾

أي: ﴿وَمِنَ﴾ هؤلاء ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ فريق ﴿يُؤۡمِنُ﴾ ويصدِّق ﴿بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ مثله مثل مؤمني الحضر، سواء بسواء، وأيضًا ﴿وَيَتَّخِذُ﴾ يعد ﴿مَا يُنفِقُ﴾ من مال في الزكاة والجهاد ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ أي: تقربًا ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالىٰ، ﴿وَ﴾ وسيلة لنوال ﴿صَلَوَٰتِ﴾ دعوات ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ حيث كان ﷺ يدعو للمتصدقين.

هؤلاء ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ في جنَّته ورضوانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لسيِّئاتهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

يقول رب العزة عن أشراف الناس:

﴿وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

يعني: وأشراف الناس، هم ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ إلىٰ الإسلام ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، وكذلك: السابقون الأولون إلىٰ الإسلام من ﴿ٱلْأَنصَارِ﴾، ومعهم كُل ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ علىٰ درب الإسلام ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ إلىٰ يوم القيامة، هؤلاء، وهؤلاء، وهؤلاء: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعتهم له ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بإنعامه عليهم، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع هذا الرضىٰ عنهم ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الرضىٰ عنهم وإعداد الجنات لهم: هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وبعد بيان جزاء السابقين الأولين فى الإسلام، الذين لم يتخلَّفوا عن الجهاد، ولم يعتذروا عنه، يبيِّن الله تبارك وتعالىٰ: جزاء المنافقين من الأعراب أهل البادية، والمنافقين من المدينة أهل الحضر، الذين تخلَّفوا عن الجهاد، فيقول:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

وهذا: هو **القسم الأول** من المتخلِّفين عن الجهاد، وهم المنافقون الذين تمرَّدوا في النفاق، واستمروا عليه.

والمعنىٰ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ يوجد فيهم ﴿مُنَٰفِقُونَ﴾، ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أيضًا يوجد منافقون.

هؤلاء، وهؤلاء: ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ تمرَّنوا عليه، وتفوَّقوا فيه ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ من فرط خُبْثهم، ومع شدة ذكائك وفطنتك، ولكن ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ونعرف سرهم وعلانيتهم.

هؤلاء، وهؤلاء: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرة بالفضيحة في الدنيا، ومرة بالعذاب في القبر، ﴿ثُمَّ﴾ بعد عذابهم مرتين ﴿يُرَدُّونَ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

وهناك ـ من المتخلِّفين عن الجهاد ـ غيرهم يقول عنهم ربنا سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

وهذا: هو **القسم الثاني** من المتخلِّفين عن الجهاد، وهم المؤمنون الذين ارتكبوا المعصية، بتخلفهم هذا، ولكنَّهم اعتذروا وهم: أبو لبابة وطائفته الذين ربطوا أنفسهم بسارية المسجد، حتىٰ يتوب الله عليهم.

والمعنى: وهناك قوم ﴿ءَاخَرُونَ﴾ تخلفوا عن الجهاد، ولكنَّهم لم يعتذروا بمعاذير كاذبة، بل كان اعتذارهم: أنهم ﴿ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وسوء فعلهم في التخلف، هؤلاء ﴿خَلَطُوا۟﴾ فيما فعلوه ﴿عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وهو الجهاد، ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ وعملاً سيئًا وهو التخلُّف عنه دون عذر، هؤلاء أيضًا ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ حيث اعترفوا بذنوبهم، والاعتراف بالذنب: توبة، كما يقولون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

ويلاحظ: أن ذكر التوبة هنا تطميع لهم أن يتوبوا إلىٰ الله تعالىٰ، لعل الله أن يقبل توبتهم.

ومن باب التطميع في قبول التوبة أيضًا أمر الله تعالىٰ لرسوله ـ بخصوصهم ـ قائلاً:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾

يعني: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: من أموال هذا الفريق ﴿صَدَقَةً﴾ تكون كفارة لذنوبهم ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ بها من الذنوب ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي: تُنمِّي مالهم، وتزكِّي أخلاقهم تهذيبًا وتحسينًا، وكذلك ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم، حيث ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ وطمأنينةٌ لقلوبهم، ورحمةٌ؛ لقبول توبتهم.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لاعترافهم بالذنب، ودعائك لهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في نفوسهم.

ومن باب الدعوة إلىٰ التوبة والحث عليها، يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

يعني: ﴿أَلَمْ﴾ يعلم هؤلاء التائبون قبل توبتهم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ الصادقة، ويتجاوز بسببها ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ إذا أخطؤوا..؟

﴿أَلَمْ﴾ يعلم هؤلاء التائبون قبل دفع صدقاتهم، أن الله هو ﴿يَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ويقبلها، ويعطيها الفقراء.

﴿أَلَمْ﴾ يعلم هؤلاء التائبون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فلا يتسرب إلىٰ نفوسهم يأس وقنوط؟

ومن باب الأخذ بالأسباب وصولًا إلىٰ القبول: يوحي ربنا إلىٰ حبيبه ﷺ بهذه الآية الكريمة التي يأمره بإعلانها وتبليغها وهي:

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

يعني: ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء التائبين ﴿ٱعْمَلُواْ﴾ عملًا صالحًا ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ حيث لا يخفىٰ عليه شيء، وسيطَّلع عليه ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وسيعرفه المؤمنون، كما أنكم ﴿سَتُرَدُّونَ﴾ يوم القيامة ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وهو الله تعالىٰ ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ ساعتها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ويجازيكم عليه.

وبعد أن حدَّثنا ربنا عن هذا الفريق التائب من المتخلِّفين عن الجهاد، يقول عن غيرهم:

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

وهذا: هو **القسم الثالث** من المتخلِّفين عن الجهاد، وهم المؤمنون الذين لم يعتذروا للرسول ﷺ صراحة، ولكنهم ندموا أشد الندم، وحزنوا ـ لفعلهم ـ غاية الحزن.

والمعنىٰ: وغير هؤلاء وهؤلاء قوم ﴿ءَاخَرُونَ﴾ تخلَّفوا عن الجهاد، **وهؤلاء** ﴿مُرْجَوْنَ﴾ أي: مؤخَّرون موقوفون ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وقضائه، ﴿إِمَّا﴾ **أن لا يقبل توبتهم،** فـ ﴿يُعَذِّبُهُمْ﴾، ﴿وَإِمَّا﴾ أن ﴿يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ **فلا يعذبهم.**

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بصدقهم وكذبهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله معهم.

القصص التي تحدثنا عنها في الآيات السابقة: عرفنا من خلالها الكثير عن المنافقين وصفاتهم، وفيما يلي يقص الله عز وجل علينا نموذجًا من تصرفاتهم لشق الصف الإسلامي، والعمل على زعزعة وحدتهم، وإضعاف قوتهم، حيث يقول الله سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

أي: ﴿وَ﴾ هؤلاء المنافقون ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ يعني: بنوا ﴿مَسْجِدًا﴾ قرب مسجد قباء ﴿ضِرَارًا﴾ للمسلمين ﴿وَكُفْرًا﴾ بالله، وتقوية للكفر الذي يضمرونه، والنفاق الذي يُخْفونه ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث يصلِّي بعضهم بهذا المسجد، وبعضهم بمسجد قباء، فيضعف تجمعهم، ﴿وَإِرْصَادًا﴾ أي: انتظارًا ﴿لِّمَنْ﴾ يعرفون، ممن ﴿حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ بناء هذا المسجد، وفيه يتجمعون، وفيه يكيدون للإسلام والمسلمين.

وهم يخفون هذه الأغراض ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ للمسلمين، قائلين: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾ أي: ما أردنا ببنائه ﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ من الصلاة، وذكر الله، والتوسعة على المسلمين.

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما ادّعوه.

وقصة مسجد الضرار هذا: أنه كان هناك رجل اسمه «عامر الراهب» قد ترهَّب في الجاهلية، ولبس المسوح، وتنصَّر، واجتمع الناس حوله، فلما ظهر الإسلام، وجاء محمد ﷺ وآمن الناس به، حقد عليه هذا الرجل ومَن تَبِعه، ثم بنى أتباعه مسجدًا، قرب مسجد قباء؛ للأسباب التي ذكرتها الآية السابقة. وقبل خروج النبي ﷺ لتبوك طلبوا منه عليه الصلاة والسلام أن يأتي إليهم، وأن يصلي في هذا المسجد، ويدعو لهم بالبركة، فوعدهم - ﷺ - بذلك بعد أن يعود من الغزو.

وهنا نزل قوله تعالى للنبي ﷺ:

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

يعني: يا محمد ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾ أي: في هذا المسجد الذي بنوه للضرار ولا تُصَلِّ لهم فيه ﴿أَبَدًا﴾.

ثم قال له: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾ أي: بُني ﴿عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فيه وهو مسجد قباء، الذي أسسته ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ ذهبت فيه إلىٰ المدينة ﴿أَحَقُّ﴾ وأَوْلىٰ ﴿أَن تَقُومَ﴾ للصلاة ﴿فِيهِ﴾.

وهذا المسجد، وهو مسجد قباء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ۚ﴾ من النجاسات كلها، وأولها الشرك.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ ويرضىٰ عنهم، ويُحسِن إليهم.

ثم بيَّن ربنا الفرق بين المسجدين قائلًا:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

يعني: ﴿أَفَمَنْ﴾ هل يستوي من ﴿أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ مع مَن ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ﴾ علىٰ حرف وادٍ ﴿هَارٍ﴾ مائل للسقوط، ضعيف الأساس ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾ وسقط ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾

وهل هذا في الخيرية مثل هذا؟

أبدًا: الذي أسس علىٰ التقوىٰ ثابت، والذي أُسِّس علىٰ الباطل ينهار بصاحبه في نار جهنم. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ في أفعالهم، وفي أقوالهم، **حيث**:

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

أي: ﴿لَا يَزَالُ﴾ سيظل ﴿بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ وهو مسجدهم هذا، **أو كل ما** يفعله المنافقون كيدًا للإسلام ﴿رِيبَةً﴾ وشكًّا، وضعف إيمان ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ **ما داموا** أحياء، ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بأن يموتوا، أو ﴿تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ **من هذا** الشك؛ فيتوبوا.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بهم، وما يصير إليه أمرهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله معهم.

بعد أن بيَّن المولىٰ سبحانه وتعالىٰ حال المتخلِّفين عن الجهاد فيما قلناه منذ قليل، يأخذ عز وجل في ترغيب المؤمنين في هذا الجهاد علىٰ نحو مزيد علىٰ الفضل فيه أبدًا حيث يقول جل وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أغلىٰ شيء عندهم ﴿أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ وجعل ثمن هذا الغالي: ما هو أغلىٰ منه ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾.

ولكن: متى يكون ذلك؟

عندما ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ﴾ تارة ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ أخرىٰ.

وكان ذلك ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ ثابتًا مؤكدًا، وهذا الوعد للمؤمنين مذكور ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾، وقد وُعِدَ به المؤمنون من كل أمة، حين أمرت بقتال أعداء الله.

وهو وعد من الله سبحانه وتعالىٰ: لا يتخلَّف أبداً؛ إذْ لا يوجد ﴿مَنْ﴾ هو ﴿أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ عز وجل.

﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ يا مجاهدون في سبيل البشرىٰ الحسنة ﴿بِبَيْعِكُمُ﴾ هذا ﴿ٱلَّذِى بَايَعْتُم﴾ الله ﴿بِهِۦ﴾.

واعلموا أن ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ حيث لا ربح أعظم من الجنة.

ولكن: مَن هؤلاء المؤهلون لهذا البيع العظيم؟ إنهم:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

أي: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ عن الشرك والنفاق، غير المصرِّين على المعصية.

﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ لله، المخلصون له.

﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ لله على نعمة الإسلام، وعلى كل حال، وكل نعمة.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون، الذين يسيرون في الأرض طلبًا للعلم، أو للاعتبار.

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ أي: المصلُّون لله تعالى، المحافظون على الصلاة.

﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وهو: طلب فعل كل ما يأمر به الشرع ويرتضيه.

﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وهو: طلب الامتناع عن كل ما نهى عنه الشرع وقبَّحه.

﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ لأحكامه وتعاليمه المتعلقة بالخالق والمخلوق.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ المتَّصفين بهذه الصفات أنهم الفائزون برضوان الله تعالى.

ويلاحظ: أن الآية قد وصفت هذا الفريق من المؤمنين بتسع صفات؛ الست الأولى منها تتعلق بالخالق سبحانه، والسابعة والثامنة. تتعلق بالمخلوق، وهو الإنسان، والتاسعة تتعلق بالخالق والمخلوق.

ونحن إذا فتَّشنا في أنفسنا على هذه الصفات سنعرف: لم لا نرى جهادًا في سبيل الله، ولا مسارعة إليه.

ولذلك: فعلى الدعاة إلى الله والمربِّين في هذه الأمة أن يركِّزوا في تربية الناس على هذه الصفات؛ لإيجاد جيل يحب الجهاد في سبيل الله، ويسارع إليه.

كما نلاحظ: أن أول وصف لهؤلاء المجاهدين هو: التوبة.

ولذلك مَن لا توبة له ـ وبالذات من الشرك ـ لا غُفران له، بل لا استغفار له، بمعنى لا تُطلب له المغفرة، حتى ولو كان من الأقربين.

ولذلك يقول رب العزة تبارك وتعالى:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾

يعني: ﴿مَا كَانَ﴾ ينبغي ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ ﷺ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين ماتوا مُصرِّين على الكفر حتى ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾، وذلك ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ وعرفوا وتأكدوا ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: هؤلاء المشركين ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ لإصرارهم على الكفر، وموتهم عليه.

وقد نزلت هذه الآية: بسبب استغفار النبي ﷺ لعمِّه أبي طالب الذي أصرَّ على الكفر ومات عليه، وكذلك استغفار بعض الصحابة لأبويه المشركين.

قد يجول بخاطرنا أن إبراهيم عليه السلام، قد استغفر لأبيه وهو على الشرك، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

فكيف يباح هناك، ويمنع هنا؟ والجواب في قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

أي: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام ﴿لِأَبِيهِ﴾ إلا وهو حيٌّ، يرجو إيمانه وهدايته، وأيضًا كان هذا الاستغفار: بسبب ﴿مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ أن يستغفر له ربه، ويطلب له الهداية منه، وذلك في قوله له:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

ولا يَصِح أن يخلف وعده، خاصة وأنه حي، والأمل في هدايته قائم، وأما عم النبي ﷺ: فإنه قد مات، ومات الأمل في هدايته.

ومع ذلك ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾ أي: لإبراهيم عليه السلام، من جهة الوحي إليه ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي: والده ﴿عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ ولا أمل في إيمانه، وأنه سيموت كافرًا ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وتنصَّل من صلته به.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ كثير التأوُّه والتألُّم والشفقة والرحمة ﴿حَلِيمٌ﴾ ومن حلمه أنه كان يترفَّق بأبيه، ويدعو له، بالرغم من التهديد والأذية التي كانت له من أبيه.

ولكن ومع هذه الصفات التي كانت فيه: فقد تبرَّأ من أبيه، حينما تبيَّن له انقطاع الأمل في إيمانه، وكَفَّ عن الاستغفار له.

لمَّا نزل منع المسلمين من الاستغفار لذويهم المشركين: خاف الذين استغفروا منهم من عقاب الله تعالىٰ لهم علىٰ ذلك، خاصة وأنه قد مات جماعة من هؤلاء الذين كانوا قد استغفروا لأقاربهم من المشركين، فأنزل الله قوله تعالىٰ:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

والمعنىٰ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ أي: ليقضي عليهم بالضلال والعقاب بسبب استغفارهم لموتاهم المشركين ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ للإيمان، ووفقّهم للهداية، ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم﴾ من العمل ﴿مَّا يَتَّقُونَ﴾ ويبتعدون عنه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يؤاخذكم علىٰ استغفاركم لهم السابق بعد بيان الحكم لكم بهذا الخصوص.

ويعود السياق للمؤمنين المجاهدين مرة أخرىٰ حيث يحضُّهم الله علىٰ التقوىٰ والجهاد ببيان أنَّه وليُّهم وناصرهم، فيقول جل وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

أي: ثقوا فيه، واعتمدوا عليه، واطلبوا نصرته وحده لكم.

وقبول التوبة: نعمة كبرىٰ، وهدية من الله عظمىٰ!!

ندعو الله تعالىٰ أن يرزقنا التوبة، وأن ينعم علينا بقبولها.

اقرأ معي إنعام الله علىٰ أهل غزوة تبوك، قوله تبارك وتعالىٰ:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

يعني: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾ أي: عاد بفضله ورحمته وعقده وتثبيته ﴿عَلَى﴾ قلب ﴿ٱلنَّبِىِّ﴾ ﷺ وقلوب ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ وغيرهم من سائر القبائل، ما بين

راكب وماشٍ، وهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ إلىٰ غزو الروم بتبوك ﴿فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ من قِلَّة المال والعتاد، وبُعد الطريق، وشدة الحر، وكثرة العدو وقوته، وذلك ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ﴾ عن الثبات علىٰ الإيمان ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ بسبب هذه الشدائد، ولكنَّ الله ثبَّتهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ من آثام هذه الخواطر، وقوَّىٰ عزائمهم، وربط علىٰ قلوبهم ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

كذلك.. ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

أي: ﴿وَ﴾ تاب ﴿عَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ من الصحابة وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك، بدون عذر، وندموا ندمًا شديدًا، ولم يختلقوا أعذارًا كاذبة لتبرير تخلفهم هذا، كما فعل المنافقون، وهم ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ أي: أُرجئوا في قبول توبة الله عليهم، كما في قوله:

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦].

واشتد ندمهم، وطال انتظارهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ يعني علىٰ سعتها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ من خوفها ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ وتيقَّنوا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ﴾ سخط ﴿ٱللَّهِ﴾ وغضبه ﴿إِلَّآ﴾ بالرجوع والاستغفار ﴿إِلَيْهِ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ بعد خمسين يومًا من الانتظار والقلق والترقُّب ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ وقَبِل منهم توبتهم ﴿لِيَتُوبُوٓا۟﴾ ويصبحوا من جملة التائبين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ الذي يقبل التوبة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأهلها.

وهكذا اتضحت لنا ضرورة الجهاد في سبيل الله، ووصف المتخلِّفين عنه، وبيان جزائهم، ووصف المسارعين إليه، وبيان جزائهم. ثم يأمر الله المؤمنين بتقوىٰ الله، وضرورة انضمامهم للمجاهدين المخلصين، والعلماء العاملين، حيث يقول جل وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

يعني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بإقامة شرعه، والعمل بأحكامه،

والإلتزام بتعاليمه، وترك معصيته، ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم، وهم الذين قال الله عنهم:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

ثم يعاقب ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ مَن يتخلَّف عن الغزو في سبيل الله مع النبي ﷺ قائلاً:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

أي: ﴿مَا كَانَ﴾ ينبغي، وما كان يصح ﴿لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الذين تخلَّفوا عن الغزو في سبيل الله، يوم تبوك ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن﴾ الغزو والخروج مع ﴿رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ ﷺ ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي: يصونوها ﴿عَن﴾ الذي رضيه رسول الله ﷺ، لـ ﴿نَّفْسِهِۦ﴾ مع الشدائد، والبذل في سبيل الله.

وهو: أدب ينبغي أن يلتزمه المسلم مع قيادته الراشدة، التي تجود بنفسها في سبيل الله، و﴿ذَٰلِكَ﴾ النهي عن التخلُّف المذكور لسبب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: الجنود المجاهدون ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ يعني: عطش لقلة الماء، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ يعني: تعب ومشقة، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ يعني: مجاعة لقلة الزاد، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الجهاد طاعة لله، ونصرة لدينه.

كما أن هؤلاء المجاهدين ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾ ينزلون منزلًا، ويدوسون مكانًا بأنفسهم، أو بخيولهم، أو بجيوشهم، أو بمعداتهم ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ يغضبهم ويؤدي إلىٰ هزيمتهم النفسية، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أي: ولا يصيبونهم أية إصابة، أو يحدثون بهم أية هزيمة ينالونها منهم، لا يفعلون شيئًا من هذا ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ﴾ ثواب من الله ﴿عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾ مقبول.

حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في جهاد، أو غيره، **أيضاً**:

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

والمعنىٰ: أن هؤلاء المجاهدين ﴿لَا يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله ﴿نَفَقَةً﴾ من مال أو غيره ﴿صَغِيرَةً﴾ قليلة ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ كثيرة، وكذلك ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ﴾ في سيرهم للجهاد، ذهابًا أو عودة ﴿وَادِيًا﴾، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم﴾ ما ينفقونه، وما يقطعونه في صحائف أعمالهم، وذلك ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ عليه جزاءً ﴿أَحْسَنَ﴾ من ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ به، من أعمال صالحة.

فإذا كان الأمر والثواب بهذا الشكل، فكيف يحدث التخلُّف؟

هذا عن موضوع التخلُّف عن الجهاد في سبيل الله، وما للناس من ثواب إذا لم يتخلَّفوا، بل جاهدوا وهناك مجال آخر لا ينبغي التخلُّف عنه: ألا وهو طلب العلم ونشره بين الناس، يقول عنه رب العزة:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

نزلت هذه الآية بعد أن فضح الله المنافقين لتخلُّفهم عن الجهاد، وعاد المسلمون من الغزوة، وخافوا من هذا التخلُّف وصمَّموا علىٰ أن ينفروا جميعًا في كل غزوة مع النبيﷺ، بل لمَّا بعث النبي السرايا للجهاد: نفروا جميعًا، وتركوه وحده بالمدينة.

والمعنىٰ: ﴿وَمَا كَانَ﴾ ينبغي أن ينفر ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ للجهاد ﴿كَآفَّةً﴾ أي: كلهم ويتركوا النبي ﷺ وحده، خاصة: إذا كان الجهاد فرض كفاية، يقوم به بعضهم نيابة عن الجميع.

﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلَّا ﴿نَفَرَ﴾ أي: خرج من كل فريق من المجاهدين ﴿طَآئِفَةٌ﴾ عدد، يبقىٰ مع النبي ﷺ ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ تحصيلًا، وفهمًا، وعملًا ﴿وَلِيُنذِرُوا۟﴾ بهذا العلم الذي حصَّلوه وتفقهوا فيه ﴿قَوْمَهُمْ﴾ الذين خرجوا للجهاد، وفاتهم هذا العلم، بسبب غيابهم عن مجلس النبي ﷺ ودروسه، وذلك ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ من ساحات الجهاد ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ما يجب اجتنابه والتوقِّي منه.

وهكذا حدثتنا آيات السورة الكريمة: عن وجوب قتال المشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين إذا أظهروا نفاقهم، كما حدثتنا عن نوعين من النفير، يحتاجهما الإسلام، وهما: النفير للجهاد، والنفير لطلب العلم.

والآن تضع آيات السورة: دستور الحركة الجهادية في الإسلام، وهي الاستراتيجية التي لا يجوز للمسلمين إغفالها، أو التهاون فيها، حيث تأمر هذه الآيات المؤمنين: بأن يقاتلوا الكفار، الأقرب منهم إلىٰ المسلمين وبلادهم، فالأقرب، وأن يشتدوا عليهم، ويغلظوا إليهم، إذْ يقول العزيز الحكيم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

يعني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قاتلوا كل الكفار وهذا واجب، و ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: القريبين منكم دارًا، أو بلادًا، أو نسبًا، وهذا أوجب، ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ﴾ حال قتالكم لهم، بل دائمًا ﴿غِلْظَةً﴾ قسوة عليهم، مثل قسوتهم عليكم، ولا تتهاونوا معهم، ولا تنخدعوا بالشعارات الزائفة، التي يطلقونها مثل: دعوىٰ الإنسانية، ومراعاة الرأي العام.. إلخ.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ وأنتم تجاهدونهم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بعونه، وتأييده ونصره، وأنه إذا اتقيتموه: ينصركم عليهم.

ثم تبيِّن الآيات موقف المؤمنين والمنافقين من القرآن فتقول:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

يعني: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ﴾ علىٰ محمد ﷺ ﴿سُورَةٌ﴾ من القرآن في غيبة المنافقين ساعة نزول الوحي بها ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لأصحابه ولضعاف الإيمان إذا عرف ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ﴾ السورة بما فيها ﴿إِيمَٰنًا﴾ ؟

وذلك: من باب الاستهزاء بالمؤمنين، والإنكار للقرآن!!

ولا يكون منهم جواب، إنما يجيب الحق سبحانه وتعالىٰ بما هو الحق، حيث يقول:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدَّقوا بالله وآياته، واتبعوا رسوله ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ هذه السورة، كما هو الحال في كل سورة ﴿إِيمَٰنًا﴾ لتصديقهم بما جاء فيها ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بكل تكليف يشرِّفهم به ربهم، وهذا عن المؤمنين حينما تنزل السورة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

أي: ﴿وَأَمَّا﴾ المنافقون ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وشكٌّ، وضعف اعتقاد ويقين ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ السورة بعد نزولها، ومعرفة ما فيها ﴿رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ كُفرًا جديدًا إلىٰ كفرهم السابق، ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ مُصِرُّون عليه، لم يتوبوا منه.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

يعني: أَلَا يعقل هؤلاء المنافقون ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ فيعتبرون؟

بماذا يعتبرون؟

﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ ويُختبرون ﴿فِى كُلِّ عَامٍ﴾ بالابتلاء والنوازل ﴿مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ عسىٰ أن ينصلح حالهم، ويتوبوا إلىٰ الله تعالىٰ من نفاقهم ﴿ثُمَّ﴾ بعد كل هذا ﴿لَا يَتُوبُونَ﴾ مِمَّا هم فيه ﴿وَلَا هُمْ﴾ أيضًا ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعتبرون، فيتوبون.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

يعني: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ﴾ علىٰ محمد ﷺ ﴿سُورَةٌ﴾ من القرآن، في حضور المنافقين ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ وتغامزوا بالعيون، استهزاءً بما جاء فيها، وسخرية من المصدِّقين بها، وتدبيرًا لهروبهم من هذا المجلس، وتساءلوا بعيونهم أيضًا، وكأنهم يقولون ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من المؤمنين، إذا قمتم؟ ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ من المجلس، وهم علىٰ كفرهم.

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الهدىٰ وفهم القرآن، وذلك: بسبب أنَّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الحق لعدم تدبرهم له، واعتبارهم به.

وبما أن السورة تحث علىٰ القتال، وحتىٰ لا يفهم أحد أن هذا الحثَّ علىٰ القتال للأعداء في سبيل الله؛ تفريط بالمؤمنين، يبيِّن ربنا تبارك وتعالىٰ: أنَّ بعثة محمد ﷺ، وما فيها من الأمر بقتال الأعداء: هو الخير كل الخير للمؤمنين.

إذْ يقول مذكِّرًا لهم بهذه النعمة:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

يعني: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ أيها الناس جميعًا، ويا أيها العرب خاصة ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم، لا من الجن، ولا من الملائكة، ﴿عَزِيزٌ﴾ شديدًا ﴿عَلَيْهِ﴾ ومؤلم لنفسه ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: ما يشق عليكم، ويتعبكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أن تهتدوا، وتؤمنوا، وهو ﷺ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خصوصًا ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يريد لهم الخير.

وإذا كان محمد ﷺ علىٰ هذا الحال، فإن الله يقول له:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

يعني: ﴿فَإِن﴾ لم يستجيبوا لك و ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإيمان بك، واتباع ما جئت به، والجهاد في سبيل الله ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ يكفيني، ومنه أستمد العون وبه أَستنصر ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وإليه فوَّضت أمري، وبه وثقت، لا بغيره.

﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ومَن كان رب أعظم المخلوقات علىٰ هذا النحو: فإن التوكل عليه يُغني عن جميع المخلوقات.

* * *